
اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق
نبيه الشعار
موال وفيقه
قصص

نبيه شعار



من منشورات اتحاد الكتّاب العرب

2000

البريد الالكتروني: E-mail :unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

www.awu-dam.com

تصميم الغلاف للفنانة: جاويدا جرعتلي

□□

الإهــداء

قصص المجموعة مهداة إلى

السيدة هالة الزين

زوجتـي

التـي ألـهمتنـي الشعر ثم أعانتنـي فكتبت القصة

■■

عديله

أنت وحيد في هذه الفلاة. السيارة ليست رفيقاً. آن لك أن تعـرف أن الحديد عدو الإنسان. الحديد إذا انفرد بك قتـلك.. الأصوات والإيقاعات التي تتسرب من الراديو، أكـثر جفافاً من يد حطاب عجوز. إنها صمّاء، وإن بدت لـك ناطقـة وطـرية، فقد اجتاحتك بمكر شديد. احتلتك بمباغتة كالفرح الذي يعوم في مدى حزين.. ..

أيها المسافر وحدك في البهجة الصحراوية.. إن الهمّ يحتويك مُدلهِّماً وطاغياً وأثيراً. فتتقدم، وليست لك القدرة عـلى إلغاء اصطدام الأرض بالفضاء عند الأفق البعيد، فكلما اقتربت منه.. بَعُد.

أنت ما تزال سعيداً، أليس كذلك؟.. حسناً زدْ إذن من قســوة مشط القدم على السطح المطاطي لِدواسة البنزين. سـتنهب السيارة الأرض بك نهب الحريق. ليس المطاط

وحـده ما تدوس عليه. إن تحت المطاط حديداً، فترفَّقْ.. صلب هو الحديد، وإذا انفرد بك قتلك.

أراك تُـبطئ.. هـل خـوفَ الحديد، أم لتتملَّى هذا المشـهد الـذي لا يـتكرر إلا لماماً، كما تقول؟.. إنه لا يـتكرر –وكـثيراً– إلا هنا. فهو عادي مع تلاطم الرمل والحصى والريح والصرصر والشجر الإيهامي الأصلع. فـأن يـنقضَّ جارح على جيفة، لأمر عادي هنا. إنما لا تستغرب إذا عرفت بأن للجوارح غير طيِّبة الطويِّة ولَعاً بالانقضاض على الحيوانات الحية أيضاً وعلى السيارات.

ها أنت اقتربت. صار المنظر أكثر اتضاحاً. الجارح أخذ البطين الأيسر من قلب الجيفة وطار.

لا تحسـب أنـك أفزعته فطار.. ها هو ذا يعلو من الشمال الصافي كعينيْ عديلة، إلى الغرب العكِر.

لقـد عـاد. ماذا ألمَّ بك؟؟.. ما هذا القرعُ بالصدر، الوقْرُ بالأذنين، الارتجاف بأصابع القدمين؟. ربما أن هذا هو الضعف الإنساني الذي لم يتحدث عنه (مالرو).. اعلمْ إذن أن الجـارح هو الأذكى.. إنه يتعامل مع السيارة كما لـو كـانت جيفة – لعله يتعامل كذلك معك أيضاً–، لكنه أحس بالخطأ، فابتَعَد.

دع الجـارح الآن وواصـلْ رحـلة عودتك الشفافة وبحـثك المغـري بالحنان إلى مجهول لا تريد أن تسميَةُ

كذلك.. هل تجرؤ على تسميته على هذا النحو الأصدق؟. أنــت لا تجــرؤ.. وأيضــاً أنت واهمٌ إذا حسبت الزوجة جالسة على كرسي انتظار مذهَّب أو مزركش. إن حلمك بكــأس حــليب دافئ هو الآخر وهم، فضرع العنزة التي تركــتها عند باب الدار يوم سافرت، كف عن الإدرار ثم جــف تمامــاً.. بــل إن العنزة تدور حول نفسها منذ أن ســافرت. ويوم شرعت بالعودة جفت هي الأخرى، كما جفــت ورقة اليانصيب التي أبقيتها لعديلة، ألوانها اللماعة كعينيْ فهد جريح بهتت أولاً، وبهتت عديلة نفسها؛ إلا أنها لــم تجــف كــلها بَعْــدُ... أمامك قطيع. انظرْ. ألا ترى عشــرات الضــروع وقد غدا كل اثنين منها لوحين من خشب متلاصقين صقيلين ويهتزّان.

هــا أنت عند باب الدار. لماذا تُشيح وجهك؟ ما بال وجهــك صار أشبه بوجه تيْس آسيوي مكسور الساقين؟ لمــاذا تهــرول مبتعداً مقترباً من ساحة الدار؟.. أما كنت تــريد الدخــول لــتعبَّ الحليب من كفيْ عديلة؟.. حسناً. أدخــل. أحكِــم إغلاق الباب. أرتَجْهُ ثم تابع في الدهليز الطويل. الدهليز ليس مظلماً إلى الحدِّ الذي تتصورً. حدقتا عيــنيك هما المُجهدتان.. إن النور يغمر المكان كله، أنت الــذي لا تراه، لأنه نور أسود –النور نفسه الذي أشعلت يوم الرحيل–..

لقـــد وصـــلت إلى آخر الدهليز. الأُكرة في متناول قبضــتك. أدِرْهـــا. أدرها، افتحْ. ليس في الداخل كلب.. تخـــلّص من لعنة تصوراتك. كان لك قلب من صوان، ما لـــك الآن؟ ماذا بك؟.. ليس لك غير الكُرة. أدِرْها. أدِرْها بقــوة وبثــبات. (شيكســبير) قال: التردد ضعف لا يليق بالـــرجال. إن جرأتك في داخلك، وما تسمعه ليس عواء كلب. أنت تسمع صوتك.

عديلة، في الداخل تنتظر، والكأس بين راحتيها. لكنها لـــن تسقيك الحليب، فإنه لم يعُد ثمَّة من حليب. تريدك أن تملأه أنت لها بالمُجَفّف.

فـــأنت من أرسل عصير البرتقال المجفف؛ صاحبك الـــذي أحضـــره، دق الباب وانتظر حتى تسلّمته، تسلمت الزجاجة منه، فانصرف.. والزجاجة الآن في الداخل فوق منضـــدة التـــلفزيون.. أما التلفزيون فقد أبْعِد بعيداً، لأن عديلة كفّت عن الحاجة لترى نفسها فيه أو تراك. وعديلة لم تشرب من العصير المجفف، عوّدتْ نفسَها شراباً آخر موبقـــاً واحـــتفظت بالزجاجة ملأى لتشرب من المجفف معك.. ليس عليك سوى أن تُدير غطاء الزجاجة إلى أي اتجاه أردت فتنفتح بيَّارة البرتقال. ثم أمل الزجاجة -قليلاً أو كـــثيراً- يـــندلق الشراب بارداً كالزمهرير، حلواً كما المـــتعة والارتواء. سوف ترتويان. لسانك الذي أصبح له

قـوام مـبرد خشب صَدِئ، سيعود أملس وطرياً كخدود الأطفـال النائمين، كَقلوبَ الخِراف المذبوحة حديثاً، وإنما لن يكون له دفؤها...

هل ستَدير الأُكرة؟ إذا لم تفعل أدرتُها أنا لا تقل إنك لا تـراني. قـل إنـك لا تريد أن تراني.. .. أدِرْ.. أدِر الأُكْرَة..

دارت الأُكْرة.

كل شيء حولك دار ثم ارتجّ.

.. صوتٌ أشبه بالهزيمِ، ملأ الأرجاء جميعاً، لكنه في واقع الأمر لم يملأ شيئاً البتة.

أنـت الآن نخـلة. نخلة تهتزُّ كأنْ لا واحة لها، ولا رُطَب فيها كي تتباهى.

أنت مستلب الخاطر والجَنان. يحتويك ريش كثير كاد أن يمـلأ الغـرفة ولكـي تبعِده عنك، طوَّحت في فضاء الغرفة يديك وساقيك وجسدك كله، لكنه كلما أمعنت، كلما تحـرك مـزيد مـن الهواء فازداد الريش المتطاير عدداً وكـثافة. ألا تـدري بأنك لو سكنْتَ لسَكَنَ الريش.. أنت تقول يا ألله كم يكون الإنسان غبياً في بعض الأحيان، ولا تتذكر (نيوتن).. حسناً. واصل البحث إذن عن جدار تلوذ به وتحتمي..

لم تجدْ فردَّدتْ دون صوت: لعلّي أخطأت البيت.

إنك ترمع أن تنادي (يا عديله)، وقد آن لك أن تكف عـن الأفكـار الحمقاء. إن صوتك إذا فعلت سيبعث في هـواء الغرفة حافزاً يسهم في تطاير المزيد من الريش، وربمـا عطّـل قـانون الجاذبية من أساسه. فالأفضل أن تستكين جالساً في مكانك، وأن تضم ذراعيك إلى صدرك كيفما اتفق وبهدوء بالغ كالضراعة ما استطعت..

تَبَصّر الريشَ من مكمنك.. إنه يتساقط في اتئاد محدثاً جلبةً رفيقة كسلحفاة تبيّض..

صمتْ..

ارسـم دقـائق وثواني الحوار الصاخب الذي تنوي إدارتـه مع الزوجة عديلة أتحسب أنها خزّنت الريش كي لا تـراها ولا ترى الكلب. الريش ما يزال يلهو غير آبهٍ بشيء في بيداء غرفة متعتكما الوحيدة..

تعِبٌ أنت، فارخِ جفنيك ونَمْ.

غفـوت ساعة؟ ربما أكثر، ربما أقل.. ها هي معالم الغـرفة شرعت تتضح رويداً رويداً. إنها غرفة متعتكما الوحيـدة. هببت واقفاً. حشوت رئتيك الإثنتين بكثير من هـواء الغـرفة. الهواء بكر، فلن يساعدك لترفع صوتك بالنداء عليها.. هممت بالقول. بدأت بكلمة (يا). ثم سكتَ

وسكنت.

كان النسر الكبير الهرم يتقدم منك بكأس من عصير البرتقال المجفف. الكأس أصغر من الغرفة بقليل. فزعت فزعاً عظيماً. ارتجَّ عليك كأنك صُعقت. أحسست بالدوار. الغـــرفة كـــلها تدور. أنت أيضاً تدور. وروحك يدور.. غطَّاك النسر كلّك. غطّكَ. ضمّك تحت جناحين قويين من حديد وإسفلت. أحسست أن روحك تخرج من تحت أظافر قدميـــك. إن الـــروح قُدْس الأقداس، ولذا فإنه يخرج من الرأس. فلا تبتئس.

لـــك الآن أن تصـــرخ بحـــثاً عن عديلة.. .. هكذا: عديـــــ.. .. لاه.. .. عديله. بعد ذلك طأطئ وقدِّمْ رأسك المصـــطخب بالأفكار للنسر الكبير الهرم. وقل له: عديلة حبي. عديلة محياي ومماتي.. سيُطلِقكَ النسر.

إن النسر أذكى.

■■■

الفراشـــة

السـكان فـي مظلة الزهور، لم يكونوا يحبون اسم بـلدتهم هذا. يتمنون لو سُميَّت: "المظلة" أو "الزهور"؛ لا أن يجمـعَ الكلمتين مسمىً واحد. والطريف في الأمر أن البـلدة ليـس فيها زهور إطلاقاً، فهي قمة جبل تتوزعه بدون انتظام أشجار عتيَّات من الصنوبر والزعتر والبُطم والسنديان؛ وجدها السكان هكذا في زمن لا يُعرَف متى، فـتوازعوها ولم يضف أحدٌ منهم شجرة واحدة عليها منذ ذلك الحين. إلا الصبَّار الذي غرس أمام بيته شجرة جوز حـدث أن قـاومت واسـتمرت، لم تثمر أبداً. إلا أنها قد صارت من الضخامة حجماً جعلها معلماً من معالم البلدة يُسـتدل بهـا فتهدي.. وفي البلدة الكثير الكثير من أسماء الـزهور مُطـلَقَة على البنات؛ بل إن جميع بناتها كانت أسـماؤهن أسـماءَ زهور؛ وإذا أعجز أحد تسميةَ ابنة له

باسم زهرة، كان يلجأ إلى إضافة اسم زهرة ما إلى شيء مـــا، مـــن قبيل: عوسجة الجبل أو وردة البراري أو فلة الوادي، أو ما إلى ذلك من التراكيب التي تقوم على مزج الزهـــر بالأرض.. وقليلٌ من الزهور حدث أن سُمِّيَ بها بعض المواليد الصبيان تحبباً أو نذراً لأن الحمل به تم بعد تمـــنٍّ وانـــتظار مديدين، ولكنهم إذ يغدون شباباً ورجالاً تصـــير أسماؤهم بالنسبة للبعض منهم مدعاة خجل. فهل يعقل أن يقول أحدٌ لأحدٍ إن اسمي نرجسٌ أو ليلكٌ مثلاً.؟ لذلـــك تجدهـــم يعزفون عن تقديم أنفسهم للآخرين، رغم معرفـــتهم بأن في هذا شيئاً من عدم اللباقة. ولكن كلاً من الســـكان كان يتباهى بأن سمَّى ابنته باسم الزهرة الأكثر ندرة وجمالاً.

والصـــبّار الـــذي طبقت شهرته الآفاق بصيدة للدببة والذئـــاب وشـــتى الوحوش في الأحراش الفطرية شتاءً، والحجـــل والحـــباري فـــي السهول البعيدة شيئاً ما ربيعاً وصـــيفاً.. كـــانت طباعه غير طباع ناس البلدة كلِّهم. فلم يكن يأبه لأي إسم حملته البلدة؛ ولم يكن يأمل البتة أن تلد زوجـــته "ريحانة" ابنةً قطُّ، لأسباب لديه، وليس فقط لأن الـــزهور جميعـــاً قـــد سميٌّ بها وتكررت التسمية مراراً وتكراراً، وليس لكي لا يضطر لإيجاد اسم لا يروق له أو لا يـــروق للأقـــارب والجوار، أما وقد وضعتها أنثى فلا-

حول ولا قوة إلا بالله.

جهـد الصبّار ليجد لابنته الوليدة اسماً غير م. بوق، فلما عجز، قرر أن يسميها: "الفراشة" لمفهوم خاص لديه عـن الـدور الذي تؤديه الفراشة في الطبيعة رغم ما في مثل هذه التسمية من خرقٍ واضح للتقاليد، ومن تجاوز قد لا يكـون مسـتحباً.. بـل إن العُجْز الأقارب –الأقربين والأبعدين– وجدوا فعلته مدعاةً تطيُّر، وبعضهم لم يُخفِ تشاؤمه.. فالفراشة هي آكلة الزهور.

-2-

الصـبّار كـان معتاداً على مغادرة بيته في الظلام والمشـي فيـه لساعات ليلية طويلة، ومعتاداً على البردِ أيضـاً. ولكـن الليلة التي وُلِدت فيها "الفراشة" كانت ليلةً شديدة البرودة، والثلج كثيف لم ينقطع منذ الأمس، فكيف لـك أن تذهب يا أبا فَراشة، رجائي لك ألا تذهب اليوم، ففـي هذا البرد لا حجل ولا درّاجٌ ولا سخّامٌ أسود.. فإلى أين أنت ماضٍ يا أبا الأولاد؟..

هـذا مـا قالـته ريحانة وقد باشر الاستعداد لرحلة الصـيد، بعـد أن انفض جمع النسوة اللائي كن متحلقات حـول فِـراش الـولادة، بعد أن طَعِمْنَ من سُفرَة مريم المعـتادة واغـتظن من الاسم الذي أُطلِق على المولودة

وعــبَّرت بعضهن عن ذلك وعن امتعاض كبير.. ولكنه صــمَّ الأذنين معاً، ولم يُعِرْ ما قالت ريحانة أي انتباه أو تصــدر عــنه إجابــة تــريح قلب المرأة الوَجِل والأبناء الخائفين عليه من شيءٍ ما، المندهشين من إصرارِه؛ حتى إن زهــر الرمان – الإبن البكر– تريث علَّ الأب يخلع نعــليه وينام، قبل أن يقول له: إنك لن تستدل على الذئاب فــي ليــلة ظلماء كهذه يا أبي، لا بأس من امتطاء الليل القــارس والخوض بالثلوج، وإنما في ليلةٍ بدر كي تسمع العواء فتتبعه وتصوِّب فتصيب.

اكــتفى الصبَّار بأن حدَّق في وجه ابنه ذي الأعوام الســبع عشــرة، وامــتطى جزمته الجلدية وتقلّد بندقيَّته العثمنــليّة، ثــم صــفق الباب ومضى كأنه سهم يريد أن يتخلص من قوسه كيفما اتفق.

بــلى، كان الأب عنيداً عناد الصبار نفسه.. حقاً إن لكل مسمى نصيباً من اسمه.

–3–

خــوَّض الصبَّار في كثافة الثلوج المتراكمة من آخر الهــزيع الأول إلى مطلع الفجر، لم يسمع سوى دحرجةٍ لصــخرة بين حين وآخر إذا أثقلها الثلج ولم تكن متشبثةً التشبُّث الكافي بجذرها، وسوى عواءٍ تسرق صداه الوديان

القريبة والبعيدة ولا تعيده، هو عواء الريح الجبلية..

أحسَّ بكلال أخذ يتمشى في قدميه المُجهدتين. لقد كف تَهطـال الثلج وتدحرجُ الصخور الطِفلة وبدأ عواء الريح بـالخفوت.. ها هو ذا النهار قد ركب السحائب التي في الأفـق صـابغاً إياها بالبرتقال فالليمون فالرمان فبقلوب الجـوز البيضاء، إلا سحابةً في الأفق البعيد تأبَّت، فظلت مصطبغة بلون البُطم الداكن تتحدى الشمس الهزيلة وتنذر بسكب غير محدود من المطر.

فكَّـر الصبَّار بما سيكون عليه حاله لو استمرت تلك الغيمـة في تحديها للنهار وفتحت صنابيرها. سيغدو نقيعاً كله، وسيتسرب الماء إلى ملابسه الداخلية وتمتلئ الجزمة فيصـبح أكثر وزناً، فكيف لـه من ثَمَّ أن يعدو ويطارد بكفاءته المعتادة.. لابد من فعل ما يجنبه ذلك، ولا صواب أكـثر مـن الـلجوء إلى كهفٍ أو مغارة.. أين أنتَ أيها الكهف وأين أنتِ أيتها المغارة..؟

إن الصبار لا يرى في مدى بصره من تحت شجرة السنديان الجالس في حضنِ ظلها الحنون الذي يفرش شبه دائرة كاملة وسيعة أقل تَنْديَةً، أية فجوة، كي يفترض أنها تتقدم كهفاً أو مغارةً تحسُّباً لتطفل عابث كما عَهِدَ في تَقَدُّمِ أمهات الدرَّاج لأفراخها، والبطة الأكبر لرُهط البطِّ الطائر عندما تستريح في السهول التي تلي هذه الأصقاع، فتطلع

لهـــا الأرض من قلوبها أحلى الديدان والطحالب الوردية، تـــلهو بهـــا وتعتاش، حتى ليكاد المرء يقطع بأن بين تلك السهول والبط علاقة عشق وإيثار من نوع محبب، جميل وغريب.

تــــراوحت في ذهن الصبار، تفاعلت داخله، ثلةٌ من الأفكـــار كأنها جُندٌ مُحتشدٌ يوشك أن ينقض عليه فيقتله.. رفـــع عينيه إلى أغصان الشجرة. حكَّ رقبته تحت الذقن. دغـــدغ تفاحة آدم. عاد فمشط لحيته الشهباء بأصابعه، ثم هبط بكل كفه إلى البطن. ضغط معدته. أحس بخواء كبير ذكـــره بامـــتداد دهليز عظيم رآه ذات رحلة من رحلات صـــيده فـــي بطن جبل، وكانت تعلوه كالأعلام جذوعٌ لا أغصان لها ولا أوراق. صمم أن يأكل من عشب نامٍ زاهٍ بإضـــاءات ترســـلها مـــن أعاليه حبيباتٌ باقياتٌ من ثلجٍ اضمحل أكثرُه، فصارت مصابيح ممنعةً في الصغر، ومع ذلك فإنها تتلألأ.

أبقى على كفه اليسرى ممسكة بالبندقية المعلقة بكتفه، لاحـــظ أن فوَّهَـــتها مـــتجهةً إلى الأعـــلى فأمالها باتجاه الأســـفل- فذلـــك أدعى لحفظها إمّا همى مطر-، وقبض بجُماع كفه الأيمن على الأرض السكرى بالندى وعشبها، فاقتـــلع قبضة منه وعلا بها باتجاه فمه. ما كاد يُلقمها الفمَ الجائعَ حتى دوَّى من خلفه عواء ذئب كان ما يزال يمضغ

شـــيئاً يســـيل منه بعض الدم.. ألقى ما قبض من العشب واستدار، وأدار بحركة واحدة فوَّهة البندقية باتجاه الذئب الشـــبع، لكن الذئب هو الآخر استدار في الآن ذاته، وعَدَا فغـــاب بيـــن الأحـــراش الداكنة دكَانَةَ الغيمة التي تحدَّت الشـــمس وأصرت على البقاء بلونـها البُطْمي مُهددةً بمطر كثير.. فأحس بالاحتقار. وأقسم إنها ذئبة وليست ذئباً.

ألا أيـــتها الذئـــبة النتـــنة الجرباء: أيَّ طريدة كنت تلوكين؟. طريدتي أنت فاذهبي حيث شئت، سأنالك قبل أن تهضمي ما افترست.

تقـــدم من الأحراش بهدوء جِرْوٍ وليد. حيث لم يسبق لـــه أن اختبر هذه الأحراش قبلاً. حدق بكثافة الدَغل. لم يـــلحظ حركة. تقدم أكثر وأكثر. لاح له في العمق مُنبَسَط وسطح يلمع. مضى إليه. اقترب منه. كانت الدوائر على صـــفحة المـــاء تتلو كلٌ واحدة منها واحدةٌ ثانيةٌ، فيستمر الاتســـاع ويـــتكرر في توالٍ غير منقطع. تخيَّر حافة من جوانب البحيرة تمكنه من رؤية المشهد كله، واقتعدها.

كـــانت تلك، هي المرة الأولى التي يرى فيها ذئباً لا يهـــاجم. لِمَ فرَّ الذئبِ والصيَّار لم يكد أن يلتفت؟ أيعقل أن يكون قد خاف؟ ما الذي في الإنسان يُخيف الذئاب الجبلية؟ ألا إن أمرك عجيبٌ أيتها الوحوش.

فجـــأة طفـــت على سطح أفكاره مسألة الجوع. حشٌ

شـــيئاً مـــن عشب نديٍّ. همَّ بالتهامه. أبصرَ على الجانب الآخر من الماء عينين حمراوين تنظران ثم تميلان باتجاه الماء، وقد امتد من الوجه الأشعر لسانٌ ورديٌّ أخذ يلعق في اطمئنان وثقة. ارتفع الرأس ثم عاد فانكبَّ على الماء، يلعق ويلعق..

إذ ذاك كان الصبّار قد مضغ ما في فمه، فاتخذ لنفسه وضـــعية الصـــياد الواثـــق. انبطح على العشب والطين، صـــوب البندقية باتجاه واسط الرأس فوق سطح الماء بين العينين تماماً. أحس بانتشاء الظَفَر المقترب. حبس أنفاسه. تبسَّم. عصر الزناد. أعاد عصر الزناد. تأبَّت البندقية عن الإطـــلاق. قطّـــب حاجبيه. لعنَ مِنْ لعن. كرَّر المحاولة. بقيـــت الطـــلقة في حجرتها تغطُّ بسُباتها. حاول أخرى، فانطـــلقت الرصاصة؛ ألحقها ثانية وثالثة ورابعة.. افتضَّ الـــدوي عذريّـــة المكان ولم يفتض الرأس الأشعر. رفع صـــوته بســـباب مألوف وسباب غير مألوف.. نشب بين العيـــون حـــوار: حوارٌ غير آبهٍ من جانب وعدوانيٌّ من الجـــانب الـــثاني. ظل الذئب ينظر إليه لا مبالياً ويصنع لســـانه الوردي دوائر إضافية على سطح الماء، مدة من الوقت.. ثم أدار ظهره ببلادة وهزَّ ذيلاً بطول قامة صبيٍ فحـــدَّق بعيني الصبّار، ثم مشى متئداً كأنه قد صمَّم أمراً فـــي نفسه، دون أن يعير بالاً لتلاحق شتائم الصبّار الذي

كـــان صدره يعلو وينخفض مُستفزاً، ويحس بقهر كبير. إنهـــا المرة الأولى التي يُفلت منه ذئب كامل على مبعدة أمتار، وهو الذي ينال حتى الدوري ولو كان على مسافة مـــئة أو يـــزيد. تلفّت حواليْه كمَنْ خشي أن يكون أحدٌ قد رآه. انتابه شعور بالإحباط، وعاوده الإحساس بالاحتقار.. أيعقل أن التصويب لم يكن مُحكماً؟.. أيعقل؟..

أيقـــن أن الماء شكل عائقاً. لو لم يكن هناك ماءٌ لقفز مـــن مكانـــه كالوحش على الوحش فأنشب ليس الأظافر فحسب، بل أصابع بأسرها..

تـــباً للماء وما فعل.. لا. ليس لأحد أن يسبَّ الماء؛ فمـــن الماء كل شيء حي.. آه لو أن بعض هذه البحيرة فيك يا مظلة الزهور لاستحقيت الاسم بجدارة. ولكن، أمن الممكـــن اســـتنبات الزهور من بطون الصخور؟.. بلى، يمكن هذا.. فما على المرء إلا أن يضيف جهداً وفكراً إلى مـــا هو مُتَاحٌ، فيصبح غير الممكن ممكناً وفي المتناول.. لكنكم يا أهل مظلة الزهور تقضون أعماركم جيلاً في إثر جيل ترقبون المطر، فإذا هطل كانت لكم أرزاق تعتاشون بهـــا، وإذا زادت وفرة محاصيل الشجر الذي لم تزرعوا؛ طلّقـــتم، أوتزاوجـــتم زيجات ثانية، أو اعتديتم، أو هبطتم المديـــنة فأتَحَـــتُم لـــلعاهرات والقوادين أن يسرقوكم، ثم تعـــودون لمظـــلة الزهور تروون الأكاذيب واهمين بأنكم

دفعتم ثمن ما استمتعتم، وكأن المُتَعَ -حتى وإن صحَّت- يجب أن تكون المصاري مقابلها.. أما إذا شحَّ المطر وقلَّت المحاصيل، لم تفعلوا أكثر من أن تصلّوا صلاة الاستسقاء، وتطأطئوا الرؤوس في رواحكم وغدوكم، متجهمين، أذلاءَ من ذنب غيرِ معروف وغير منظور وغير قابل للغفران في الآن نفسه.

حدّثَ الصبّار نفسه هكذا قبل أن يغط بنوم عميق يعتوره شخير كأنه الخوار..

[4]

حين صحا، أبصر الظلام يلفه من الجوانب كلها وأوراق الحرش يُسمع لها حفيف يبعث في النفس رهبة ويدعوها إلى الخضوع أو إلى التمرد..

أحس بقدر من الشوق إلى الفراشة. استرجع بكاءها. واسترجع رجاء ريحانه ونصيحة زهر الرمان.. طرد جميع ذلك من مخيلته. صمم أن يقعي في مكمنه يرتقب عودة الذئبة إلى الماء. أقسم ألا يعود إلا وذيلها معه. لكن النعاس غلبه فعاد إليه. ما كاد يغفو حتى عوى، الصبّار نفسُهُ عوى. في الآنِ ذاته، غاب كالبرق داخل الدغل الداكن، ذئب مُستثار علِقَ بين فكيه الضاريين قبضةُ لحمٍ وعظمٍ.

[5]

في تلك الآونة من الليل كانت ريحانة وزهر الرمان يتحادثان، بينما الحطب يأكل نفسه مُحْمَرّاً جَمْراً، والفراشة تغــطّ فــي نومها المتواصل كأنها لا تريد أن تستمع إلى سفاسف ما يقولون. قال الفتى: أبي لن يعود الليلة.

قــالت الأم: أبوك لن يعود إلا ومعه دب أو ذئب أو حــتى ضــبع، في جميع الأحوال سيعود، إنه الآن مجرد مستاء لأن من جاء هو الفراشة وليس الدبور، أبوك يحب الدبابير يا زهر الرمان.. وأنتِ أيضاً تُحبينها، كنتِ كثيراً ما تقولين: الذكر أبقى وأرقى من الأنثى.. قال ذلك زهر الــرمان فســكتت ريحانة. مالت إلى الوليدة. حشرت في الفــم الصغير ثديَها المكتنز، واستسلمت لنوم لذيذ. غطى الــنار زهر الرمان.. فمنْ عاداتهم الاقتصادُ في الحطب وفي الجمر، كما هم في كل شأن آخر.

كــان الــليل قد هجع بانتظار صباح جديد يوشك أن يفضح كل شيء تدثّر بأي شيء، حين سُمِعَ خارج البيوت المغلقة على أسرارها صوت امرئ كأنه أخرسُ يستجير، أو مَــنْ لم يكن راغباً ولا قادراً على قول كلمة واحدة تنمّ عمّن هو.

ســمعتْ ريحانـــةُ الصــوتَ فيما شفاه البنت الرقيقة ممســكة بتشــبث بالصدر الثري حليباً وحياةً. نحّتِ ابنة

اليومين. نشبت. تعثّرتْ. أمسكت بجذع من شجرة الجوز كان انتوى الصبّار أن يقصّه. رفعت مزلاج الخشب المتآكل.. أصبح أكثر من نصف الرجل في الداخل، وأصبحت بندقيته على العتبة أقرب إلى الخارج. همستْ الريحانة: ساعدْني كي لا يفيق الأولاد. قال: احملي البندقية وأمسكيني من الناحية الأخرى، فإن ذئبة أكلت كفي.. وأين ذيلها؟ ألم تصدَّها؟.. أجاب الصبّار: بلى يا ريحانة القلب، وسَكَتْ. توكأ عليها. جر جسده وهو ساكت.

تذكّرتْ ريحانة أن الفرّاشَ يأكل الزهور.

وللمرة الثالثة أحسّ الصبّار باحتقار للنفس يعتصره اعتصاراً.

■■■

كـروان

[1]

تلفـتت كـروان يساراً قليلاً يميناً قليلاً ثم استدارت باتجـاه الصـوت الأغنّ وقد عبث بوقارها المهذب الذي اعـتاده الحي كله، وامتطى كبريائها في تحدّ فظّ.. حدّقت في الوجه اليافع، تمعنت فيه، بحرّت.. ربما إنه راق لها، ربمـا أعجبها فقط..، لكنها قالت: استح.. يا ابن الشرمو [..]. فالفتى صبّ تغزّله على الموقعِ الأكثر اختباءً وإخفاءً في جسد أي امرأة.. وتجرأ، بل تواقحَ وسمّاه.

اكـتفت بهذه الشتيمة واستمرت سير الحجل الغرير متجلببة بالسواد.. كان كعب حذائها النحاسي العالي يقرع الرصـيف مـن أوله حتى آخره.. فيرنُّ –ليس الرصيف فحسب– وإنما الشارع كله، ويلبس لرنته رداء الاشتياق.

[2]

عيّنت كروان في فراغ لامرئي وأذنت لخيالها أن يرجع عشرين سنة وأكثر.

أبصرت بعين الخيال [بسّام] ذلك الفتى الأشقر في نظافة بادية ومحسوبة رغم أنه مجرد صبي لدى بائع الخضرة وظيفته أن يتولى توصيل طلبات المنازل.. كان مبتسماً على الدوام، ويرفض على الدوام تناول المكافأة النقدية من يدها الطرية، فتبادله ابتساماً بابتسام، ثم لا تغلق الباب على عجل، إنما بتؤدة متمهلة ورفيقة، كأنها لا تودُّ أن تغلقه.. لم تكن تريد أن تنتهي الابتسامة العذبة..

كان يقول لها: – احفظي مكافأتي لديك. وكانت تحفظها.. تضعها كل مساء تحت وسادتها. وفي الصباح تدسها في محفظتها وتذهبان معاً إلى المدرسة.

لقد امتلكت نقود بسّام كيانها كله.. وكما احتفظت بها سراً بينها وبينه، كذلك احتفظت بابتساماته.. فكانت تدسها في قلبها عند الباب، وما إن يغادر تستخرجها وتلهو معها النهار كله، وتحل بها مسائل الرياضيات العويصة، وتستعين بها على حفظ قصائد الشعر الجاهلي.. غدت وحيدة الصف التي حفظت دون غلطة واحدة، منهاج الشعر الجاهلي كله وخطبة قسٍّ بن ساعدة ومقاطع من بخلاء الجاحظ.. مما جعلها موضع العناية الفضلى لدى

مُدَرِّســـة الأدب العـــربي، وموضع حسد بعض الزميلات وإعجـــاب بعضهن الآخر.. وإذا آوت إلى السرير خبأت الابتســـامات بين نقوده تحت الوسادة، كي تسترجعها من جديد في الصباح..

ومثلما كانت تزداد النقود مع ازدياد طلبيات الخضار أو الفواكه، فكذلك كانت الابتسامات.

[3]

بعـــد أشهر، وربما عامٍ.. قال لها بسام: أنت جميلة.. وناولها طبقاً فيه تين وكيساً فيه عنب، وأردف: أجمل من كـــل فاكهـــة الدنيا. ثم ابتسمِ. قالت: أنت أجمل. وأغلقت الباب بالأناة المعتادة.

[4]

إحدى زميلاتها حدثتها عن أشياء حميمة تفعلها البنات مـــع الصبيان في خلوات تتهيأ لهم أو يهيئونها على سطح مـــنزل أو تحـــت درج، وأنها -كما قالت- ترد الروح. سألتها:

-هل تحبين؟

أجابت: .

-وأنتِ، هل أحببت أحداً؟

-أقول لك عن الأشياء الحميمة، ثم تسألينني.. طبعاً أحببت وأحب، ويا لكثرة ومتعة ما فعلناه.. كل مع الآخر.

تمنّت كروان، فشابت وجهها حُمرة حيِيّة وداعبته تلك الابتسامة.. ودت لو كان مدّ يده إلى خدها يوم أن قال لها أنـــت جميـــلة.. وودت لو أنها مدت يدها ورفعت خصلة شعره الشقراء، العابثة أبداً بالجبين الأحبّ، لكانت أحست لـــبعض لحظةٍ، لحظةً جزءً من الحميمية التي سمعت بها على التوّ.

[5]

الفـــتى اليـــافع الذي أسمعها ما أسمعها، عاد فشاغل ســـمعها بالـــتغزّل نفســـه. لـــم تتوقف هذه المرة، كما لم تشتمه.. اكتفت بأن نظرت في وجهه. عاودها وجه الفتى صـــبي الخُضـــار والفواكه، فاستشعرت قشعريرة خلَجَتها كلها حتى كادت أن تسقط.. ولكن الحجل استمر يمشي.. واســـتمر اليـــافع يتـــبعه، إلا أنه لم يعد يقول شيئاً. ظل وراءها ظلاً من الظلال أشبه بالأليف. ثم حاذاها.. خاف كل شيء فيها من لمسة أو إمساكة لعضد..

-كيف أتصرف إذا فعلها؟ إن الجرأة التي له أمر لا يصدّق. أبْعِدْهُ عني يا رب..

تظاهرت بلا مبالاة متيقظة. مضت وقد حاذاها تماماً.

تعمـدت ألا تـنظر إليه. لكنه كان ينظر وكان يبتسم، بل ويكـاد يضـحك.. نظر إلى الرصيف الآخر وهمس إني أعـتذر، حقـاً كنت قليل أدب. وصمت، ثم لوى خطواته فصـار على الجانب الآخر من الطريق. لكنه ظل ينظر إليها.. وظل يبتسم.

[6]

تمنت لو أنه ما اعتذر.. لا تدري لماذا هذه الأمنية.. كـانت فـي داخـلها مساحة رغبة واشتياق تناديه على اسـتحياء ليسحب اعتذاره، وربما ليعاود قول ما قال. أما الشتيمة فقد كانت من قبيل رد الفعل الإنعكاسي.

[7]

–مـا الذي حدث جراء ما قاله؟ لا شيء.. إنه شاب واشـتهى، لـم يمكـنه عمره من إبداء الإعجاب بطريقة أخرى. لقد قذفه عمره باتجاه النهايات. ومن كان في مثل سن يفاعته تعنيه النتائج لا المقدمات.. إن قلت عن نفسي كيـف لي أن أتعامل مع فتى يافع، لا يجب أن أقول كيف لفتى يافع أن يتعامل معي.

صمتت برهة لتعاود القول لنفسها:

–ثم ربما إن زوجة أب ربّته فافتقد الأم حتى وجدها فـي.. إن الحـرمان العـاطفي يفعل أكثر من هذا. وإن

الحرمان العاطفي يفجر المضامين.. والفتى باعتذاره، لم يقصــد أن يعــتذر، بــل عبر عن مقدار ما فعلته لديه، شتيمتي.. لا، أنا ما قسوت. كان يستحق ما سمع..

[8]

تقصــدت أن تنظر إلى الرصيف الآخر وأن تجعله يــراها تــنظر إليه.. ما كانت تظن أن له الابتسامة التي لبســام. بسام كان عرق ورد والتوى في هاجرة الحرب. عشرون ربيعاً فتياً أكلتها نيران الحرب. لقد أخذ مني ما أخـــذ بيــنما أنا داخل النشوة والرضا. بلى، لقد كان فعلاً حميميــاً ودافــئاً، ومدعـــاة ســعادة لم أقدر على وصفها إطلاقاً.. هل يريد الله بجلال قدرته أن يكرر علي بسام؟. مـــن يــدري. والعمـــر؟ تباً للعمر كيف يحول بيننا وبين صبواتنا.. لا، يجب ألا يحول، فإن نازك الصلحدار جعلت من عمرها جسراً وعبرت عليه إلى ضفتها الثانية.

كـــان الفتى اليافع يتشاغل بالنظر أماماً، ولكنه أيضاً كان يبتسم.

[9]

فـــي يـــوم آخـــر صعقت كروان، رأته واقفاً بالباب كالقدر. قالت:

-ادخل.. لا تفضحنا.. يا لك من جريء.

ابتسم الفتى..

لم يدخل

قال:

-أتيت لأعتذر وجهاً لوجه، فأنت بمقام أمي.

نظر بحنان جم في وجهها الفل. كانت له نظرة جندي مندحر وجريح على سرير في الوطن.

همّ بقبلة عجلى. أسلست له خداً تورّد في اندهاش.

لامسـت الخـدّ شفتان من ندى، وشارب من زغب الدُرّاق.

وكَمَـنْ فوجئ بجمرة تأكل فمه.. أدار وجهه. وجعل يهـبط درجـات السلم كأنه مطارد.. كان خائفاً من شيء ما..

بـتوءدة كظيمة، تركت كروان الباب، فأوصد الباب نفسه.

■■■

الصوصاني[1] والولد

- مثل هذه الأربعينية ما مرّ منذ خمسين سنة.

- فعــلاً يا أبا عبد الجليل. أيضاً لا تنسَ أن الشتوية كلها كــانت ظالمة هذه السنة.. لا نزل مطر ولا انخفض سعر لحــم.. أعــان اللّه الفقير، ماذا سيأكل.. كل شيء صار أغــلى مــن الذهــب.. أخاف يا أبا عبد الجليل، أن تأكل الناس بعضها والعياذ بالله..

- أجارنــا الله مما تخبئه لنا الأيام، صار الزمن صعباً يا شيخنا.

- فعــلاً فعــلاً يا أبا عبد الجليل. أصعب مما كنا نظن. واللّه أخاف أن يأتي علينا زمانٍ نصبح فيه مثل ما كنا أيام

(1) صوصاني: واحد قوم من قضاء صاصون التابع لمدينة تبليس في القوقاز، هاجر كثير منهم إلى حلب في القرن التاسع عشر، وامتهنوا الفرانة

السفر برلك[2] كان الناس يأكلون بعضهم. ليس بعضهم بعضاً، وإنما يأكلون الأموال باطلاً وحراماً، والعياذ بالله.

- مظبوط يا شيخ.. أنا نفسي سمعت شيئاً من هذا القبيل.

- مظبوط ونصف أيضاً.. تقول إنك سمعت شيئاً من هذا القبيل؟!

إذا أنا قلت شيئاً، إعلم أنه الحق الكامل. إن الحق لا يأتيه الباطل، لا من خلفه ولا من قدّامه.. فالعسكر يا ابن الحلال، عسكر السلطان- أيّده الله- أكلوا لحم الفطيس، وشربوا بول الدواب. أي نعم.

- نعم يا سيدي، نعم. نفعَنا الله بك وبعلمك، وأطال عمرك.

.. وصمت الإثنان: الشيخ وعبد الجليل..

والولد الذي كان يُحاذي أباه والشيخ في خطوهما الوئيد تخلف بضع خطوات فأثار أباه.

تساءل كشأنه كل مرة: ما الذي يدعوك أن تُماري الشيخ هكذا في كل ما يقوله، يا أبي؟ ولماذا هو يزجرك إذا حاورته.. بل يزجر كل مَنْ يحاوره؟ حتى إنه لا يأبه

---

[2] سَفَربرْلك: عبارة تركية تعني السفر لمرة واحدة (دون عودة) ويقصد بها الحرب العالمية الأولى، إذ كان الأتراك يذهبون بالشباب العرب إليها، فلا يعودون منها.

ولو كان في المسجد.. يزجر أيّاً كان وفي أيّ مكان.. لا بد لي من يوم أقدر فيه على زجرك، يا شيخ الهمّ..

وتـــابع حـــلمه: سأتسلّلُ يوماً إلى دار عمتي وهيبة وأحضـــر قضيباً من رمانتها أهوي به بين عينيك.. يجب أن تُوقَـــفَ عـــند حدّ أيها الهرمِ الخرف.. ترى هل أزهر وأثمر الرمان في حوشك يا عمتي؟.. إن لم يكن قد أثمر سأنتظر، سأنتظر حتى إذا طاب، خطفت رمانتين: واحدة ألقيها على عمامتك ورأسك يا شيخ الهمّ، وواحدةً أعطيها لأمـــي. ربمـــا أعطـــي نصـــفاً لأمـــي، والنصف الآخر أتشبرق[3] به على هواي. إن عمتي أشد عتواً وصلفاً منك يـــا عجوز النحس، لكنني سأغافلها وأفعل ما أريد. سيأتي رمضـــان.. فـــي كل سنة يأتي رمضان، ومهما كان بَرْدُ الأربعيـــنية، يأتي رمضان.. إن رمضان فرصتك لجمع المـــال الكـــثير.. مَنْ قال إن الناس تحتاج شيخاً يوقظها للســـحور؟.. جميـــع الناس مسلمون، وجميعهم يعرف أن لرمضان سحوراً يؤكل فيه حتى الإمساك ثم يُصلّى.. إلا الصوصـــاني أبوســـورين، ما لـــه صوم ولا سحور ولا صلاة.. سأقبع لك وراء سور العمة، فإذا مررْتَ بطبلتك، طبـــلةِ اصـــح يا نائم وَحّد الدائم، رميتك بالرمانة الأكبر.

---

[3] تشبرق: بلهجة أهل حلب: تناول حلوى أو لبان أو ما إلى ذلك، من قبيل التسلي.

الطبلة ستقع من يدك. وأنت ستنهار. تصطدم بجدار يشجّ رأسك ويُدميه. سأضحك صامتاً من كل قلبي.. وفي الصباح تقول الحارة بأن أبا سورين هو الذي فعلها.

ردّ عبدَ الجليل من تداعياته، صوتُ أبيه:

-ولك يا عبد الجليل، يا ابن ستين صرماي[4]، لماذا أنت بعيدٌ عنا هكذا.. استعجل. متى تصبح رجلاً فتمشي مثل الرجال.. لعنك اللّه ولعن أخوالك.

قال الشيخ:

-لا يا أبا عبد الجليل، لا تلعنْ أحداً.. أنا لا أقول إن أخواله طيبون، لكن أدعُ لهم بالصلاح يهدهم الله سبحانه وتعالى.

-سبحانه، جلّ وعلا.

حث الولد خطاه. لاحت الساحة.

كان في الساحة جِمال قابعات تتملّى المارة في بله وربما باستهزاء وتمضغ أشداقها الكبيرة أشياء وأشياء لا يعرف غير الله ما هي.. وقد أتت من مكان في البادية، أبعدَ من البُعْد نفسه.. محمّلة بأعواد من السوس. وبركبانها الشُعْث.. أما الصباح فكانت بشائرُه تُقبل سراعاً من الأمكنة البعيدة التي لم يزرها أحد، بل إن الشيخ

---

[4] صرماي: أو صرماية: حذاء جلدي غالباً أحمر اللون يصنع يدوياً.

بجلال عمله الوفير، أعجزُ عن معرفتها.. وإذا سئل، قال الله أعلم.

أحد الجمال لوى إلى الخلف عنقاً طويلة، بطول ساق امــرأة الشيخ، فعاجله البدوي بضربة من قضيب رفيع.. أجل بطول كل واحدة من ساقيها الزهريين.. كان الولد قد رآهما في حمّام النساء قبل سنة أو أقل.

تساءل الولد عبد الجليل: لماذا لم تعد أمي تصطحبني إلى الحمّام؟ ألأن هذا المتسلط طلب ذلك من أبي؟ ما لهذا الشيخ العَفِن ولنا؟.. إنه يتدخّل في كل صغيرة وكبيرة من شــؤون الــناس . لكن أبا سورين وحده من دون الحارة كــلها، لا يأبه له البتّة. ربما بينهما مصلحة مشتركة، فلا يُــبديان أمام الناس ما هي، ويُظهران أنهما على اختلاف دائم.. وربما إن أبا سورين بطلٌ من الأبطال فيخاف منه الشــيخ ولا يقــربُهُ، بل ويَحتَمِلُ منه ما لا يُحتَمَلُ وما لا يجرؤ أيُّ رجل في الحارة على مثله. ماذا ينقصكَ يا أبي لــتكون مثله.. فعلاً إن لله في خلقه شؤوناً.. سأطلب من أمــي أن تعــود إلى اصــطحابي للحمام، فإن أبَتْ، والله لأذهبنّ إلى القمّيل[5] أعمل فيه وقاداً في الليل، وفي النهار أصعد فوق قباب الحمّام، وأنظرُ أنظرُ خلَلَ طابات البلّوْر المــلون إلى كــل نســـاء الحارة، وليس إلى زوجته فقط

---

[5] القمّيل: مكان قبوٌ تحت الحمامات، توقد فيه نار تسخين الماء.

ستكون كل النساء ملكَ عيوني وملأها.. ولا يضير إذا كانت أمي بينهنّ، أليست أمي ومحرّمة عليّ؟..

ازداد الشطط بخياله، واستمرت التداعيات: أما إذا أحست واحدة من النساء بعينين تريانها، فستتيه افتخاراً سواء أكلّمَتْ به أحداً أم لم تكلّم. وإذ تؤوب إلى البيت عشاءً كَفجلَة طرية، وينام الصغار فتتفرّغ للفحل ويتفرّغ لها، ستتيه فوق الإفتخار دِلاً وعُجْباً بنفسها.. بينما الفحل يخور..

فجأة توقّف اندفاع الحلم.

ثم عاد الولد فحدث نفسه: لا بأس مع كل هذا.. ولكن ما الوضع، إذا رآني أبو فاضل، صاحب الحمّام؟! لا شكّ أن مصيري هو شر طرْدَة. سأغدو حديث الحارة كلها.. مثار إعجاب الفتيان والصِبية جميعاً.. ومثارَ رغبةٍ في إفراغ جميع هموم وإسقاطات الرجال.. وربما أراد لِيَ أبو فاضل عقاباً أشدّ، فصفعني ثم سلّمني لأم فاضل تُدخِلني على النساء اللائي كشفتُ عوراتهن وأدخلتها إلى عيوني، يفعلن بي ما شئن.. وماذا سيفعلن أكثر من لَسْعي بإزارات يَحُلّنَها ويَنْهلْنَ بها نديانةً عليّ كيفما اتفق، وبطاساتٍ مكاويّة لمّاعة كالمرايا سيقرعنَ بها رأسي، فيرِنُّ رنّاً، وأنا أنتشي!!.. أما إذا لم يرني أبو فاضل، وعُرِف أن أحداً ما تلصص على النساء من فوق قبّة الحمّام. وتقول

الــبعض علي، سيُقال: لا، عبد الجليل نائم، ولا يفعلها، يا عيــني عليه نائم، إن شغلَهُ مُتعِب، كله ليلي، ليس مثل ما كان أيام شغله بالفرن.. فأنجو..

توقف تفكير عبد الجليل لأن أباه صاح به:

- أسْــرِعْ، فليُسْرِعْ عمرُكٍ إن شاء الله.. تأخرنا. سيُجَنُّ معــلمُك أبو سورين من تأخرِنا. أسرع يا حَبَتّي[6] يا ابن سبعين جزمة.

قال الشيخ في تشفٍ وامتعاض مصطنع:

- لا تضــغط على الولد يا أبا عبد الجليل، إن كثرة الشد ترخي. وإذا ضغطت على النذّل علّمْتَهُ المَرْجَلَةَ.

قــال الولــد فــي نفسه: والله لأرخين عظامك كلها بضــربة رمانــة واحــدة، فإذا أخطأتك، رميتك بالثانية ولــتذهب شــبرقتي وتذهــب أمي لجهنم.. بلى سأرخي عظــامك الــنخرة مثــلما ارتخى عنق الجمل بعد لسعة القضــيب.. يقولــون إن البدو أشداء، وإلا ما تمكنوا من العيش والنوم مع الجمال، ومن تحميلها كل هذه الأحمال، وامــتطائها فوق ذلك. وأنا سأمتطي قباب الحمام. واليوم، اليــوم تعرف يا أبي أنني رجل ولا كل الرجال.. المهمة اليوم هي التخلص من العمل عند هذا الصوصاني الكلب..

---

(6) حبّتي: كلمة شتيمة من لهجة أهالي حلب.

فمـــن يكـــون أبو سورين هذا، لتحسب له يا أبي كل هذا الحساب.؟ وأية صنعة هذه التي سيعلمني إياها؟.. إن كل مـــا أشـــتغله هـــو إحضار الطحين أو تقريب العجين أو توصـــيل مخبوز إلى أصحابه.. هل هذه صنعة؟؟ الحارة كلها تحسب له ألف حساب.. وهو لا يحسب لأحد حسابا؟ حـــتى للشيخ ذاته؟.. اليوم تعرف يا أبي من أنا، وتعرف الحـــارة أن عبد الجليل يفعل ما لم يفعله عنتر.. تصرفٌ واحـــدٌ مـــني.. كأن أرمي العجين على الأرض فيتسخ، سيشـــكل هـــذا ســـبباً كافياً يُخرجُ أبا سورين عن صمته الأســـطوري.. سيثور كالبغل، لا، كالثور الهائج. سيسب جـــدود جدودي، فأضربه.. أنا وحدي دون الحارة، أفهم لغته. إن الشيخ بجلالة قدره لا يعرف منها نُطْقاً واحداً.. سيعلم أبو سورين جيداً أنني ما ضربته عبثاً، بل رداً على مـــا شتم به أمي. الغير سيقولون إن عبد الجليل كَالَ لأبي ســـورين الـــذي لا يقدر عليه أحدٌ، لكمات لا عَدَّ لها ولا حصر، لمجرد أن لامَهُ لعدم الحرص على عجين. فأصير الـــبطل والأمـــثولة القـــدوة، ولا بدَّ أن الشيخ سيُعدِّل من أسلوب أحاديثه مع أبي... أما الصوصاني فلن يفعل أكثر من أن يركلني كعادته ركلة واحدة، أكون بعدها حراً طليقاً خـــارج العمـــل عـــنده وخـــارج الفرن كله. أما إذا ثنّى الركـــلة، فأحملـــه ككيس طحين وأرميه في بيت النار.. ولْتَقُمْ الساعة بعدها.

– تأخر الوقت بنا يا أبا سورين.. أين اللعين أجيرك؟ لن ننتظر أكثر من شرْب سيكارة، ثم نذهب بالحِمْلِ إلى غيرك.. أتحسب فُرْنَك وحيداً في البلد؟

قال البدوي ذلك، ثم عاد يصنع لفافة تبغ ويسعل.

أجاب أبو سورين:

– إصبُر بابا.. إصبُرْ حَجِّي.. الولد قرب وصوله.. ذهب الكثير ولم يبق إلا القليل. الغائب حِجَّتُهُ معه يا حَجِّيْ.

– بلا حجَّة، بلا مِجَّة.. شُرْبُ سيكارةٍ، ونروح.. صار الظُهرُ يا زَلَمِةْ

– تعالوا يا أخوة العُربان. أدخلوا.. الجو بارد خارج الفرن.

– الآن، تقول لنا ادخلوا؟! نحن من قبل طلوع الفجر هنا مع الزمهرير.. مشكور بابا. الجو هنا أدفأ من ضيافتك.. والله أنتم أصل البخل يا أهل المدن، وبالذات أنتم يا صواصنة.

– لا تْسِبْ أصِلْ حجي.. كل وِحْدِةْ أصلو معروفه.. صوصاني، تبن يأكل، والضيف نطعمه صينية كباب بالفرن، بابا.

– السلام عليكم يا النشامى.. لماذا لم تصلوا الفجر معنا؟

هذا ما قاله الشيخ.

رد البدوي الأشعث كالقثاء بصلف واستفزاز:

– خلينا الصلاة لك.

قال الولد:

– خذ من هذا الكلام واشبع.

لكن أحداً لم يسمعه.

تظاهر الشيخ بأنه لم يسمع كلام البدوي، وهتف بعبد الجليل:

– خفف أحمال البعران[7] يا ولد. إن لدى الأخوان طريق طويـل إلى مضـاربهم.. أعاننا الله وإياهم على احتمال الصعب وما تخبئه الأيام والليالي.

كـانت الحـركة في الطريق قد أخذت تنتشر انتشار الـبرد القـارس نفسـه.. الحمير ملأت الساحة بالنهيق وأذيالهـا تـتراقص ارتجافـاً أو انتشاء، وخدود الصبية والبـنات كمـا لو طبعت عليها طبعات من ورق الورد ومشربة بالزرقة والاصفرار والابيضاض والاحمرار في آن معاً، مع شقيقة نعمان ساكنة بمرح على كل وجنة... كـانوا يـتدافعون بكل اتجاه يتجاذبون الأثواب، ويعاجل بعضـهم خفيـة إلى حـزم السوس المحكمة على ظهور الجِمال، فيسحب عوداً طال أو قصر، فيدس ذؤابته لاهيا

(7) البعران: جمع: بعير.

بين شفتين مرتجفتين ومزرقتين.. وغيرهم كان يتراكض حـــول أجــناب الشـــيخ وأبـــي عبد الجليل الماضيين في طـــريقهما: هـــذا إلى السوق يجبي منه ما تيسر لمعاشه ولخدمة الجامع؛ وذاك إلى دكان عطارته.

نهر عبد الجليل صبية الحارة وبناتها. ابتعد الجميع إلا بنـــتاً ناولهـــا برضى وحنان قضيب سوس طويل؛ ثم انكب في ثقة واقتدار طائلين على أحد الأحمال فشالَهُ كلَّهُ بـــرفعة واحـــدة ومضى به إلى الداخل. كان أبو سورين يـــرغي ويـــرطن، بل كان يستجمع كل قواميس الشتائم الصوصـــانية القـــذرة ويرمي الولد بها.. عبد الجليل كان يفهـــم مـــا يسمع. وعلى الرغم من دفء المكان وروعة احمـــرار بيت النار الذي لا يقاوم.. خرج عبد الجليل إلى الســـاحة. وقـــف برهة طويلة. عب من برد الصباح، ثم حمـــل بخفـــة نسْـــرٍ حِمْلاً آخر وهوى به على ظهر أبي ســـورين. بهـــت أبـــو سورين.. صعق. فقد دفعه الحمْل المقذوف قريباً من فوهة بيت النار، فاكتوى...

استخرج من الجوف حفنة سوس ملتهب وقذفها باتجاه الولـــد. وقعـــت الحفنة على جمل تخلص لتوه من حمله، فهـــب مندفعاً باتجاه أبي سورين.. وبرأسه الضخم البليد دفعه دفعة أدخلته حتى كتفيه إلى بيت النار.

قال الولد في سره: يا أللّه!! لو أن لي قوة هذا الرأس

الصــلب.. كـنت نطحــت أبا سورين، أو صدر الشيخ فدحرجت العمامة.

هب البدوي. تجمهر حشد مندهش أو ضاحك.

ربمـــا إن أبـــو سورين عوى!.. قال بعض: بل شتم بصوت كأنه خوار. قال مارٌ بالطريق: جمل وهاج. ماذا نحـــن فاعـــلون مع جمل هائج. البداوى أنفسهم إذا هاج عندهم جمل تركوه.

كان البدوي الذي له شكل قثاء شعثاء قد قهقه طويلاً وانقــلب عــلى قفاه، بينما كان الجمل يخرج متمهلاً من الفرن، وقد عاد شدقاه يلوكان ما لا يعلم إلا الله.

أمســك عبد الجليل زمام الجمل. وقف على رؤوس أصــابع قدميه.. وبحنان هر دعج، أدنى شفتيه فقبلتا عنق الجمل.

حسب الجميع، بمن فيهم البدوي، أن الولد يهدئ من غضــب الجمل.. لم يدُرْ في خلد أحد البتة أن عبد الجليل إنما كان يتصور نفسه يقبل فخذ امرأة الشيخ.

ســر الولــد.. أحس بانتشاء اللحظة الحالمة.. أسبل عيــنين صافتين واستسلم لخدر كالنوم لذيذ.. صحا على أصوات ولغط كثيرين، وناس أتوا من كل حدب ومن كل صــوب: نـــاس يعــرفهم، وناس لا يعرفهم، صبية كثر

وبنات، شباب ونساء وكهول؛ جمهرتهم الساحة الرحبة.. فيمـــا قدمـــاه الصغيرتان محكومتان بوثاق جلدي شديد؛ والشـــيخ يهوي عليهما بقضيب رمّان رفيع وطري، وأبو سورين يحزم عيداناً من السوس ينتقيها قوية وندِيَّة ويُقبل بها على قدميْ الولد مخففاً تَصبابَ العَرَقِ من جبين الشيخ الغاضب... وكان صبيٌ فَتِيٌ يجلس بزهوٍ على صدر عبد الجليل..

أمـــا الـــبدوي، فكـــان يسعل سعال مصدور، ويلف أصابعه العجفاء لفافة تبغ جديدة.

■■■

جهـــراء

ســقطت عــلى قلب جهراء جملةٌ جيلٌ قيلت عجلى، وإنما بإصرار:

[السيد طلبك لأكبر أبنائه]..!!

كــانت جهــراء مولعة بجابر، شغوفة به، وتعتقد أن حــبهما مثل جُبٍّ القرية يزداد ماءً كلما زيد نزحاً، أما أن يخطــب جابــر غيرها فتلك مسألة فوق كل احتمال. لقد كــانت عصيَّة على كل خاطب. تعرف ذلك القرية كلها، وإذا كان جابر قد خطب غيرها وأزمع على زواج قريب؛ فيجب ألا يعني هذا أنها غدت لقمةً أيٍّ ناوٍ للزواج.. فحين طــلب الســيد يدهــا لأكبر أبنائه- وهو تشريف ما بعده تشــريف حســب مفــاهيم أهل القرية- تأبَّت؛ ولم تتعلل بشــيء. وعندما عرف السيد أجاب: أخطبها لنفسي إذن.. معــروف عنه أن نفسه خضراء. وعندما استُدعِيَ أبوها

إلى مضـــافة الســـيد أصرت أن تذهب معه.. أعتقد الأب بأنهــا تــريد أن ترى السيدٍ قبل أن توافق، وإذ فشل فِي إثــنائها، قـــال في نفسه: حقّها الشرعي أن تراه، أو لعلّها تريد إعلان موافقتها أمام ملأ الرجال..

كانت جريئة كما هي دائماً، فقد دخلت مجلس الرجال وقالت:

– اسمع يا عمّي، يا سيد القرية.. ماذا تريد المُهرة، يا عمّي؟؟

وقبل أن تسمع الإجابة.. خرجت كرمح أصاب مقتله ومضى..

امـــتقع وجه أبيها.. وتلوَّن وجه السيد، احمرَّ اصفرَّ، زعفــراناً ثــم أزرق، مـــن جرأة وقسوة ما سَمِع. همهم الرجال في جنبات المجلس. تنبَّه أبو جهراء لذهاب ابنته، فـــلوى وجهه قبل أن يجلس وهمَّ ليُغادِر، لكن السيد صاح به: بل تجلس وتتقهوى كالعادة يا أبا جهراء. ثم تنحنح.

سكت الجميع تلهفاً لما سيكون عليه ردُّ فعله. صمت طويلاً. عَبَّ فناجين قهوة لم تُحْصَ عدداً. فاجَأ الجميع بأن قال: أمسِ جاءني من الحاكم رسولٌ، أن علينا تقديم خمسة رؤوس إبِـــلاَ وعشـــرة رؤوس غنماً وبعض السمن. إن ضـــيوفاً مهمِّيـــن ســـيردون عليه. فالإبل عليّ.. ثم جعل يُسمِّيَ من اختار للوفاء بما بقي فيما الكل صامت في عالم

صـــنعته كلمات جهراء.. أراد أحد الجمْعُ أن يعتذر، لكن مُسِناً هزَّ رأس السمع والطاعة، فانصاع الجميع.. أردف السِيد: أما أنت فقد أعفيناك، يا أبا جهراء..

أُعيــد صـــبُّ القهــوة حتى آذن وقت الغداء فأقبلوا يلتهمون..

كان أبو جهراء كَمَنْ يأكل أحجاراً سِجّيلاً تصطكُّ بين شـدقيه وتكاد أن تسد البلعوم.. ويحسُّ بجبل من الخزي لِتَجَرُّؤ ابنته بالصورة التي تبدَّى بها، كما ودَّ لو خسفت به المضافة وبالسيد ورجال القرية..

لقــد فهــم مغزى أن يُعفَى من المشاركة في الجُعْلِ المطلوب.

عــاد الجمعْ فانعقد بعد صلاة العشاء إلا أبو جهراء فمــا جــاء حتى أرسل إليه السيد.. إذّاك فضَّ السيد ثقَلَ الجلسة بأن قال: مع الصبح أصطحب الجُعْلَ إلى المدينة. وصــمت وقتاً دهراً أدار فيه داخل الرمل قضيباً كان في يــده، ثم دفع القضيب داخل الرمل فانكسر. قال: والله، يا وجوه الخير، أصابت جهراء فيما أخطأنا. الأصقةُ لا سمعَ لــه، فَــلِمَ يكــون لديه بلبلٌ يشدو. إن البلابل تريد آذاناً تسمع.. والمُهرة تريد فارساً.. لا سائساً.. فأنت يا أباها يا أخي، تخيَّر لها.. إنها لجديرة بفارس شاب. بأفحلِ فحل.. وليس من الجنون دخولُ جهراءَ علينا الصبح، كما علمْتَ

بأن البعض قالَ.

لــم يعــلق أحد.. لكن الكل تخوَّف مما وراء كلمات السيد.

رجّ الأســماع، ورجَّ هــدأة الــليلِ والمجلسَ وجميعَ البيوتِ الداجنة.. آهةٌ واسعةٌ تبعَها عويلٌ طويل ومتقطّع.

كانت جهراء قد تلقت ضربةً مجْرَفة قوية على رأسها وصَــدغها في الفراش، فخرجت غزالة جريحة تعدو في كل اتجاه، نصفَ عارية، لا هي تبكي ولا هي تصرخ ولا هي تولول. كانت تعوي.

هــبّ الــرجال. تــركوا المجلس للجمر يكوي دِلالَ القهــوة.. عاجل أبو جهراء فألقى على ابنته عباءتة، فيما احتضنها السيد وشدَّ.. ما أحسَّت. واستمرَّت تولول.. كان ألم يفوق التصبرُ يحتويها ويعتصرها اعتصاراً، والرجال متحــلقون.. هذا يقول اصفعوها، وهذا يقول اتركوها لن تذهــب بعيداً، وهذا يقول جازاك الله يا جابر.. لقد جُنّت البنت مُذ قيل إنك ستتزوج غيرها..

أمـــا أبوها فغدا داخل ذهوله، أبله لا يقوى على فعلٍ أو قولِ شيء البتّةَ.

أمر السيد سائس خيله ليحملها إلى الحريم، ثم ليسرج لـــه فرسه، فقد طلع الصبح أو كاد، كما قال. لكن الصبح

كان بحاجة لأكثر من ساعتين كي تطلّ بشائرَه.

مضت على الحادثة شهور، وجهراء مقيمة مع حريم السـيد في قبضة صمت داكن.. يكلمها الجميع ولا تجيب أحـداً، وإذا ردَّت فـلا أكثر من أن تقول: جابرٌ هوايَ.. وتعود إلى داخل صمتها الداكن.

أمـا جابـرٌ، فمشغولٌ بالإعداد لعرسه. وفتاتُه التي اختار تعيش اغتباطها.. وبين الحين والحين تتناول جهراءَ بدسيسـة أو تذَكـرُ بها مجنونة من قبل أن يخطبها السيد لابنه ثم لنفسه. بل تسميها المجنونة كلما أتت على ذكرها. وتبتكر الأقاويل عنها.. من قبيل: إن جُنّاً يسكنونها ولا بد أن تؤذيَ من يلامسها أو حتى يقترب منها. وزعمت: إن هذا ما حَوّل جابراً عنها.

وقالت إن جهراءَ كانت وراء احتراق محصول السيد مـنذ شـهر، وأضافت: ماذا السيد صانعٌ مع مجنونة هل يُسَـلِّمَها للمخفر؟ كيف يفعل هذا وهو من آواها وسترها بعدما لَعِبَ الجُنُّ بها لعْبَ الرجال بالحريم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أبْعِدْها وأبْعِدْهُمْ عنّا يا رب..

كان النسوة يُنصِتْنَ ويَخْتَزِنَّ ما يَسْمَعْنَ فيروينَهُ حقيقةً ويَـزِدْنَ. وكثيراً ما كُنَّ يُخفنَ بها أطفالَهُنَّ ويَنهينَهم عن الاقـتراب منها.. خوفاً عليهم. ويَقُلْنَ لصغارهنَّ: إذا طلبت جهـراء أي شيء منكم يا أولاد، فأعطوها، حتى لو كان

لقمةً في أفواهكم..

وجهراء التي ضُرِبَتْ بالمجرفة، فقدت الكثير الكثير من ذاكرتها، فلا هي قالت ضُرِبْت، ولا اهتمَّ أحدٌ بالبحث عـن سبب ما أصابها.. إلاّ أنها كانت تُحبُّ الصغار كلَّ صغار، حتى إنها كانت تُسَرُّ وتحنو على الصبايا والهِرَرَة والجـرابيعِ والفئران. لكنها كانت تقسو أشدَّ القسوة على الخفـافيش الـتي تعبر ساحات الضيعة عند كل غروب، وعـلى الـرجال -شـباباً كـانوا أم شيوخاً- وذات مَرَّة احتضنها عجوز خلف مطحنة القرية وَهَمَّ يقبِّلها فغرستْ أظافرَها تحت لحيته ولم تتركه إلاّ بعد أن أخذت بأصابعها شـعراتٍ منها قبل أن تبصقَ عليه وتُفلِتَ وتتقيًّا.. وأيضاً تقسـو عـلى أشجارِ العُليق فتشدُّها حتى حدود الاقتلاع، تنظر إليها في تَشَفٍّ وساديَّة مُطلقة. والقرية ماشت خطيبة جابـر، ليس بأن جهراءَ جُنَّتْ لأنّ جابراً تخلى عنها، أو لأن شـيئاً ما أصابها تلك الليلة فخرجت حاسرة وتعوي.. بـل لما تسرَّبَ من بيت السيد أنه قال لإحدى حريمه بأن جُـنيًّا أصاب من جهراءَ وَطَرَاً تلك الليلة فجُنَّتْ. وهذا ما تلقفته خطيبة جابر وسارت به بين نساء القرية وفتياتها..

أمـا جهراء نفسها، فمُنشغلةٌ عن كل ما يقال، رضيَّة باستعدادات زواج جابر، تسهم مع المُسهمات، وإذا نهرَتْ عادت فقالت: جابرٌ هواي. فيتركونها تفعل ما تفعل. وما

إن ترى السيد مقبلاً نحوها ليؤوب بها إلى بيته مع مغرب كل شمس في حنوٍّ يحرص على أن يكون بادياً وواضحاً.. تــترك ما هي مُنشغلة به أياً كان فتتطلع إليه بخنوع، ثم تمشي وراءه خائفة من شيءٍ أمرٍ لا يعرفه إلا هما.

القــرية كلها من رجال ونساء، كانت تستغرب كيف يُطْــلِقُها السيد نهاراً ويستعيدها كل ليلة إلى بيته.. وكانوا يتساءلون عما يدعوه لهذا، ولِمَ لا يُعيدها إلى بيت أبيها..

قيــل بوجود اتفاق بينهما على ذلك حيث يتلو السيد عليها ما يتيسر مما لا يعرفه سواه، فتبقى هادئة ولا تزداد جــنوناً.. وكــان الواحد منهم يُسائل نفسه لماذا لا يجعلها الشــيخ مع حريمه خادمة تكنس أو تحلب الماعز أو تقدم التبن للبهائم، بدل أن يُطلِقها هكذا في أزقة القرية عُرضة للمهانة والسخرية والتقوّلات.. بخاصة وقد بدا كأنها حامل فــي شهرها الثامن. وبدأ الناس يتقوّلون، فمرَّر السيد أنه نســي أن يقرأ عليها ليلةً، فأتاها الجني وأصبح لزاماً أن تلزم دار أبيها حتى تضع ما لا يعلم إلا الله ما سيكون.

في الصباح التالي لمبيتها في بيت أبيها قيل:

إن مخاضــاً شديداً وغريباً أتاها مع الفجر، وما كاد يهــمُّ أبوهــا بالذهاب ليُحضِر داية القرية حتى شعر كأن يدان من حديد أقوى من حديد كل المحاريث سمّرت قدميه ومنعــته، ثــم سمع صوت شيء كأنه مِزْرَبَّة تهوي لا

يــدري من أين ولا أين هوت، فشهقت جهراء وسال دم كثير من قمَّة رأسها وأذنيها، ثم أسلمت الروح لبارئها..

.. وقد اختلف الرجال رأياً في أن يُصلُّوا عليها أم لا.

كان رأي السيد:

- بل نصلي، إنما خارج المسجد.

■■■

موّال وفيقة

هـــدأت ضـوضـــاء الليل الأول، والليل الثاني هجد، وهجـــع الـــليل الــثالث.. كل شيء سكن، فشرعت نسائم المســاء الرطبة الحنونة في اتخاذ مساراتها نحو شرفات العشاق.

تغـــطّى كــل حـــبيب بحبيبه واحتمى به. امتزجت الــنجاوى بالتواجد باللهفات.. والسفن الراسية في الميناء، سلّمت مشاعلها الأليفة لسطح الموج الناعس، بكل ما لها وما فيها من الدعة ومن الاستكانة.

عـــند هـــذا الوقـــت بالذات، امتدت يد وفيقة البضّةُ البيضـــاءُ كحمامـــة إلى خشبة السنديان التي جعلت منها مقعـــداً للأرجوحـــة الأثيـــرة. ســـعُدت الخشـــبة فماست الأرجوحـــة. كـــان عـــليها منديل أحمر مطرّز الحواشي بخيـــوط أليفات من الفلّ والقرنفل الأبيض العبَق، اعتادت

وفيقــة أن تعقده على الشعر الأشقر المنسدل على الظهر كلما هبطت إلى المدينة المجاورة، فيظن من تقصدهم أن الـتطريز فضَّــة لشدة بهائه.. ولكنْ أنّى لأهل الجبل أن يشــتروا فضــة يطــرزن بها مناديلهم. لو كانوا يملكون لاشــتروا بأثمانهــا تمــراً يأكلونه في رمضان أو سمناً يمزجون به كعك الأعياد، أو كانوا اشتروا حمّالات أثداء لنسائهم. صحيح أن وفيقةٍ في غنيٍّ عن حمّالة أثداء؛ ولكن أثــداء نســاء القــرية كلّهن متدلية أبداً كضروع الماعز، وأحياناً تُشبه وهنَّ يمشين أوراق تنباك معلقة على عيدان الـتجفيف إذا داعبتها نسائم بحر هشة.. ولو ملكوا الفضة كــانوا جعلوها خواتم أولَجُوا فيها أصابعهم علّها تضيء؛ فربما أشبهت أصابع الأغوات المكروهين المحبوبين، وما ظــلّت أصابع أبناء آوى أو ذئاب بمقدماتها المُصفرَّة منَ لفافات تبغ يتلهون بأدخنتها بين شفاه مُقشبة صيفَ شتاء، فيما هم يتلذذون بلسعات احتراق شهي.

..فيَــدُ وفيقة البضَّة البيضاء كحمامة، تناولت منديل الدموع. اقتربت به من عينين دامعتين حرّانتين واسعتين ســعة الكــون، فلامســت بحــنانه دمعة واحدة شرعت بالإنسيال على الخدِّ الأسيل الذي كأن فوق نَهْدَتِه أرجواناً، فتشرَّبها المنديل وازدهى.

مــدَّت نظــرة إلى حيــث يقيم البحر، آخر الأرض

الممـــتدة من جرود القرية إلى حدود الوادي إلى الأفق.. مسَّـــدت كل ذلك بالنظرة. أحسَّت وفيقة أن النظرة لاقت حبيبها فقالت للقمر:

– إن حبيبي في شقاء غربته يجمع الآن زعروراً أو تفاحـــاً أو أقـــاحي. ولعله مستلقٍ على حصيرته يفكر فيَّ. إن حبيبي يجمع المال ليُعلِيَني بين البنات بهداياه الكـــثيرة الثميـــنة.. قماشاً وعطوراً، بل حتى ذهباً.. وسيشـــتري لـــي أريكة أتوسَّدها، وأوسِّد رأسه على صدري فوق قلبي.. سأُغنِّيه ويُغنيني..

عـــادت وفيقـــة بـــنظرتها فرأت أنّات عناقيد العنب، المُعـــرِّش أغصاناً أغصاناً كالعشاق اثنين اثنين، تتوارى؛ ورأت الأســـى ينتضـــي نبرته الشجية ويناولها لاشتياق الصـــدر الثري المكتنز، لتتفتحَ مغاليقُ رغبته وتتضحَ – كالآجـــر– مخـــزون النار القديمة؛ وتتعرَّق زجاجاً فينيقياً مُشرَّباً بالتوق الكظيم.

قضـــت وفيقـــة الليلة كلها هكذا، حتى ترخرخ جميعُ الليل، وخرج من الوادي ملوَّناً بالشفق. صعد فوق الوادي الأســـود كالباذنجان، فصبغهُ بتؤدة وبحنان أكثرَ من جمٍّ. صـــاح ديك وغنى شحرور. بانتْ شمس الأوبة.. أيقنت وفيقة، وأيقنت يدها والأرجوحة والمنديل والدمعة والعناقيد والصـــدر ومغـــاليق الرغبة والآجر والليل المُغادر.. كلٌّ

أيقن أن الحبيب عاد.

بدأت وفيقة تسمع ما كأنّهُ صوت حبيبها. الموال الذي غــنّياه معاً قبل سنين، تسمعه الآن يغنيه ناقصاً أجمل ما كان فيه. وصوته لم يعد كما كان..

إن فيــه بحّـــةَ نـــاي يتعذب.. فنَضَتْ رعشة مغاليق الرغــبة، ثم سحبت من صوتها اختزان السنوات الباهتة، وتجاوبت مع الموال القادم من خلف السفر.. أذِنت لرحابة صـــوتها أن تســـترجع مداهـــا الابـــتدائي.. غنت داخل الصوت. رجعت إلى يوم أن غادر الحبيب وحيداً إلاّ من جُعبة أعدتها له وتعويذة دفعت مقابلها مئتين وثمانين حبَّة زيـــتون مُجـــرَّح، وأربعـــة أرغفة؛ وأضافت إلى المُقابل المدفـــوع قنينة زيت على سبيل الهدية؛ وأحاطت كل ذلك بعيـــنين حانيـــتين واســـعتين سعة الكون، ودعاءً صادقاً وصموتاً.

كانت الضيعات المتاخمة والمجاورة مبتهجة ابتهاجاً عظيماً، فكلّ منها تحسب العائد ابناً لها. أما العاشقة وفيقة وأترابها، فواثقات من أنه لوفيقة وحدها. إنه حَرَمُها الذي لا يُتَجاوَزُ قط باقتراب أو ملمس، كما أنها هي نفسها حَدُّهُ الذي لا يطال. فللآخرين وللأخريات أن ينظروا إليه. أن ينظروا فحسب...!

عـــلت في الجو البعيد هنهنات وزغاريد هزّتْ جذرَ

الوادي وسقفَ السماء. انفتحت حقول صنوبر. فاح طيب كــثير. ضــاعت عيون وفيقة. صحا كل ما في عمرها، هــتف بالعــروق فصــحت قانية دافئة. وضح انتظارها باللهفة.. فقد بدت عند أفق التطلع جمهرةٌ عراضة: رجال ونساء وأطفال صبية وبنات يرقصون وهم يمشون بتدافع نمل.. ويمزج الجميع ضحكات تتخللها أحاديث عن السفر الطويل والبلاد التي عاد منها حيث يأكل الناس كل يوم ــ كمــا زعــم العــائد ــ شواء من لحوم الخنازير والظباء المستأنســة، مضــمخاً بالعصفر والزعفران وبهلام لزج كالآهات.

قال بعض الشيب:

ــ إنهــم كفــارٌ عــلى كل حال. فهم لا يصلون ولا يســتغفرون ولا يعــترفون.. أيتبطرُ أحد هكذا إذا لم يكن كافــراً وابــن كافر. اللهم أبقِ علينا إيماننا وقناعتنا فإن القناعة كنز لا يفنى.

جاوبه حطاب صياد قديم:

ــ لا. إن خنازيركم برية وهو يقول لنا إن خنازيرهم مستأنســة. ولكــن الظباء؟! ماذا في الظبي ليؤكل؟ واللّه مافيــه أكــثر مــن أوقيــة لحم، والباقي جلاميط للقطط، اسألوني أنا. مرة صدت ظبياً أكلته وحدي وماشبعت..

مــن الشــيب من تبسم ومنهم من ضحك. ثم عادوا

ينصـــتون لما يحدثهم به العائد كالأنعام أوكما لوكانوا في خطبة جمعة أو قداس أحد. قال إنه أزمع مرة أن يشتري مديـــنة كامـــلة هناك، فعارضته الحميراء ــ مشيراً إلى رفيقته الأجنبية التي ما انفك يخاصرها منذ خروجهما من الميناء ــ ...

قال بعض:

ــ لـــو شـــاء ابن بلدنا لاشترانا إذن وبيوتنا وأبقارنا وكلابـــنا جميعـــاً. تصوروا، يقول كدت أن أشتري مدينة بأســـرها. لقد صار من أهل المال، وغداً يصبح من أهل الجـــاه أيضـــاً.وربما جعله الوالي قائمقام الجبل.. لم لا، وربما جعله السلطان والي الشام. يقال إن الوالي مغضوب عليه الآن..

قال ثان:

ــ أو وزيراً، أو آغا.

كانت العراضة تستمع وتستمتع وتستغرب وتتعجب؛ بينما هي تتقدم وتتوقف، ثم تعود تمشي هوينى هوينى.

قال العائد لواحد من العراضة:

ــ آه عـــلى كأس عرق. لقد قرحت قلوبنا من شرب الويسكي هناك.

أجابه الذي سمعه:

ـــ لعيـــنيك.. كـــل شيء جاهز.. واجبك كبير أنت وضيوفك.

ـــ هذه زوجتي، ليست ضيفاً. قلت ذلك منذ وصلت.

ـــ أنعم وأكرم. على كل حال هي ضيفتنا.

تدخل آخر قائلاً:

ـــ لعـــنهم الله ومـــا يشربون بتلك الديار. هل يوجد أطيب من العرق وأنظف؟ إننا نصنعه بأيدينا فنعرف كل قطـــرة فيه، واليانسون من أراضينا.. سمعت أن الويسكي يصـــنعونه من البصل.. تفوه.. على هكذا مزاج. أيشرب إبن آدم معصور البصل ويترك معصور العنب المقطر.

قالت الأجنبية التي تشبه كوز ذرة صفراء يانع:

ـــ أخيراً هانحن في بلدك. سأرى ماذا يكون العرق. لقد ثقبت آذاننا بكثرة حديثك عنه.

أرخى عـــلى كتفها العريان يداًوساعداً. لف خصرها وابتسم لها. خشي الجميع أن ينهصر الخصر. فإن محيطه لا يزيد على قطرِ جَبَسَةٍ لم تكتمل نضجاً. بل إن الخصر كلـــه لم يكتمل نضجاً ـــ كما قالت نساء عندما أبصرنها أول مرة ـــ وقلن:

ـــ أما الوجه فسبحان الخلاق كيف أبدع وصور..

لكنهن أضفن:

ــ إذا كـــانت زوجـــته كما قال، فلم العري والجمع رجال؟ إن نحرها ونصف الصدر عاريان تماماً. والظهر ــ أخـــزى الله زوجها وأخزاها معه ــ مكشوف كاندلاق ثمرة ليف في آخر آب.

قال مراهق بهمس:

ــ والله شيء حلو.

حدجـــته بنت وتملّته من رأسه حتى قدميه.. فانسحب إلى داخل العراضة. بنتٌ غيرها تبسَّمت لما قاله المراهق. ثالثة زمَّت شفتيها ثم تحسَّرت قائلة:

ــ يا ويلك يا وفيقة مما سترين..

وسكتت.

قالت عجوز:

ــ احفـــظ علينا حياءنا يارب، فالحياء نصف الدين.. ألم تكن وفيقة أحلى بأدبها ونسبها وحمرة خديها وجدائلها وقامـــتها الـــرمح؟؟ ثم إنها تملكٍ أرضاً فيها بيت وستين شجرة زيتون وأشجار فاكهة تغلُ الخير الكثير. وليس لها أقارب ولا أهل.

أضافت صبية من الصبايا:

ــ هـــذه التي أتحفنا بها على آخر الزمان، لا تعرف

حتى كلامنا ولا تفهمه.

ثالثة قالت:

ـ يا حسرتي عليك يا وفيقة. لقد انتظرت انتظرت من لا يستحقك. كل الشباب هكذا لا أمان لهم. يمنون الواحدة منا ثم يمضون. عصافير من غصن إلى غصن.

أكملت الأولى:

ـ الآن حلّت وفيقة لإبراهيم، لقد تفطّر وجداً وكلَفاً بوفيقة، ووفيقة تتأبى وتنتظر عودة المهاجر. يا عيني على إبراهيم. مابقي فيه رمق. لكن الله سبحانه هاهو قد أذن أن يعوّض صبره، إن لم يكن هذه الليلة بالذات، فلا أبعد من الأسبوع القادم. إن وفيقة لن تغفر فعلة معشوقها. إن لها عناد جدها يرحمه الله.. لقد تعقب دركياً إلى الشام وقتله، لمجرد أنه لطمه لطمة واحدة خفيفة. صحيح أنه أمضى لذلك عشر سنوات سجناً، لكنه عندما خرج كأنه لم يسجن. وقال بأنه قضى سبع السنوات السجن على جانب واحد من جانبيه.. ما تعب. وما قل صلابة. كان وظل سروة باسقة أو أرزة شامخة حتى مات، عليه رحمة الله.

لاحَ سرو الضيعة وأرزُها. آذنت شمس الأصيل بالذهاب إلى حضن حبيبها المشتاق. أمسى مَرَجُ العراضة أقرب إلى أذني وفيقة. بانت ساحة الضيعة. تجلت دار

وفيقــة طــوداً. اشرأب ياسمين سياج الدار. فاحت ريح: عوسج ونعنع بري. تبدت وفيقة. أطلت كعيد..

[وفيقــة بيلسان الجبل، وصبا الجبل، وفلُّهُ، وزعترُهُ، وزَعْرَنَتُهُ، وعنفوانه، واستكانته.. ..].

هكذا كان يصفها إبراهيم.

شاهدت العائد الأسمر كالبطم يعتنق خصر الأجنبية.. تسمرت وفيقة الانتظار المديد.. ظل الحبيب العائد يعتنق خصر الأجنبية... سكن الزمان لديها..

اســتعدت وفيقــة لمواويلها. مدت ذراعاً كالشمس. رفعــت ذراعـــاً أخــرى. صارت شمسان على الشرفة، حزينتان وترتجفان؛ إنما مضيئتان. وكانت الشمس الثالثة ما تزال ماضية إلى حضن عاشقها البحر.

تيبست العراضة. أرهفت لتسمع وفيقة.

أبــرقت عينا وفيقة. امتد البريق خطافاً نفاذاً كالقدر، فغمر ساحة الضيعة والعائد والمستقبلين، إلا الأجنبية.

صدحت وفيقة بما لا أذن سمعت ولا مئذنة:

هيهات يا بو الزلف

عيني يا موليا

شريان قلبي انقطع

من نظرتك ليا

ثم صمتت.

لم يقدر أحد على إحصاء عدد المسامير التي صلبت قلب وفيقة قبل أن تخرَّ صَعِقَة..

غـصَّ حـلق إبـراهيم بأطنان من السماق، فصعد الجلجـلة إلى شـرفة وفيقة لحظة أن خرت.انكب عليها محتضناً إياها كمن يحتمي..

بعـد سـنين، قال بعض البنات إنهن سمعن إبراهيم يقول لوفيقة: خذيني!! .. وإنها حين انفضَّ جمع العراضة من حول الشرفة والجثّة، ضمَّته إليها، وإنهما اتحدا!!..

لكن أحداً لم يصدّق. كما أن أحداً لم يُكذِّب.

■■■

عنق الجمل

مـــن يرى الذي اسمه نزّال بن رافع، كما ادعى حين اقتيد إلى سجن حلب مصفد اليدين ثم أسقط في يده وتعامل باســـمه الحقيقي طيلة السنوات السجن لا يملك إلا القول بأنـــه من البدو الذين لم ينزلوا حاضرة قط، والألصق ــ فـــي معاشهم وسلوكهم ــ بزمن قديم وظل قديماً، لا هو تغيَّر ولا هم أرادوه أن يتغيَّر.

كـــان منظره وملبسه يؤكدان أنه لم يخالط غير سباع البيد وأبناء آوى ونجم الشمال وعواصف الرمل وسكون الصـــحراء واستكانتها.. كان بادي البداوة أشعث بجديلته ونهايـــات كل منهما الأشبه بنبات شوكي اضطهده الماء زمناً طويلاً.. لم يُعرف له في البدو قبيلة ولا عشيرة ولا فخذ ولا حمى. ولم يُعرف من أي الاتجاهات جاء، كما لو كـــان قُــدَّ من جبل بعيد، فركب ريحاً إلى أن استقرَّ عند

خيمــة الشــيخ. حــتى إن شيخ القبيلة نفسه رغم معارفه وعلومه، لم يعرف.. لكن تبْعاً من الأتباع قال بأنه قد قدم من بلد الهجران، وصمت.

وحين سئل نزال عن أصله وعن فصله، لم يُسمَع له جواب لا إيماءً ولا نطقاً.. فقيل:

ــ أخرس، أطرش، لكنه يُبصر ويرى.

أحد الجلساء قال:

ــ إن أقــرب بدو إلى مضاربنا يسكنون على مسيرة يومين من هنا أو أكثر..فكيف وصل إلينا؟..

تنحنح الشيخ وقال:

ــ لابد أنه تَعِب الآن.. سنعرف خبره غداً، لقد طال علينا الليل يا ربْع.

ثم أمر له بطعام..

حــدق نــزال فـــي الشــيخ بعينين زائغتين حادتين حمــراوين كعيــون الجن. ظن الشيخ أنه يشكره، فهز له رأساً ثم مسد لحيته الشهباء ونهض ثقيلاً، فهبَّت المضافة وقوفاً.

ارفــض المجلس عن بكرة أبيه،إلا نزال فقد استمر يــأكل يــزدرد الطعــام ازدراداً؛ قبضة أرزٍ إثر قبضة، ويردف الاثنتين بقطعة لحم مختلط بياضاً كثيراً باحمرار

قــليل، ثم يعدل من قعدته ويعاود الكرة هكذا، ويسمع له لغــط كأنـــه خوار؛ ثم يعود يزدرد ويزدرد.. فيما الخادم الـــذي بقي معه يوليه ظهره ــ حيث من اكتمال الكرم ألا يرى المضيف أو ممثله، الضيف وهو يأكل .

طال الوقت، حتى ملَّ الخادم واستشاط ليس لأن نزالاً الــتهم وحـــده ماكـــان يكفي ثلاثة فرسان أشداء، بل لأنه والـــنوم أخذا يتغالبان بعد نهار شديد الحرارة أضرم فيه الـــنار وأنجـــز الطبيخ وأعدَّ القهوة أكثر من عشرين مرة وسلَّمها للخَوِيّ [1] يدور بها على الشيخ وضيوفه: الجلساء والندمان والشاعر الذي يعيد كل ليلة الشعر نفسه بالصوت الخشبي نفسه تعاونه الربابة نفسها.. وبنصف دورة رأس باتجـــاه نـــزال، حســـب الخادم أن ساعة الطعام قد آذنت نهايـــتها. أعاد رأسه كما كان. حدق في ظلام المضارب والصحراء.. من يكون هذا الغريب الأكول؟ ما سرُّه؟ من أين جاء؟ .. هل يضمر شراً ما لأحد ما؟.. عاد فالتفت.. فهم من حركة عينيْ نزال بأنه لم يشبع.. قال له:

ــ أطعمناك طعام الحريم، ولم تشبع؛ يشهد اللّه إنك لمـــن الجـــن أو الوحوش. سأحضر لك شيئاً آخر تتسمَّمُهُ لتنام بعده كبغلٍ بَشِمٍ نافق.

(1) ـ الخَوِيّ: جمعها الخَوْيّان، وهم خدم مرافقون مميزون عند كبراء البدو وزعماء القبائل والعشائر مدافعون عنهم وحامين لهم.

لم يبدِ نزال ماقد يشير إلى أنه قد سمع أو فهم..

قـــام الخـــادم متثاقلاً. رجع فقدَّم لنزال خبزاً وسمناً ودبساً وعاد إلى جلسته الأولى يحدق في فراغ المضارب والصـــحراء، فيمـــا برودة الليل تزداد ثقلاً وإثقالاً.. وإذ التفت بنظرة عجلى، وجد نزالاً قد تدثر فروة تيس متآكلة وغـــط في نوم ثقيل، وشخر كبعير لم يكتمل نبحاً.. فأطفأ الســـراج الوحيـــد في المجلس، واصطحب بندقيته وأحكم إغلاق طربال[1] الباب، وذهب ينام.

وصل الشيخ إلى المجلس مع أول خيط من الضوء، ووصل معه كبار العشيرة، يتبعهم الخوي الكبير متمنطقاً حـــزاماً جـــلدياً بـــنياً متآكلاً فيه جيوب ملأى بالرصاص وعلى كتفه الأيمن علق بندقيته؛ أما الكتف الأيسر فيتدلى مـــنه جـــراب فيه سيف لا يُعرف ما إذا كان بتّاراً أم لا؛ وفـــي حـــزام خصره بين الخاصرة والسرة تظهر قبضة مسدس نمساوي أهديَ للشيخ زمن العثمانيين لخدمة أداها لســـرية من الجند بالدلالة على اتجاه نجد، وإرساله معها خويـــاً لم يرجع عنهم، وقيل آخاهم فأرسلوه إلى الأستانة مستشـــاراً للباب العالي[2] لما أبدى من الإخلاص للسلطنة

---

(1) -الطربال: نسيج قماش سميك لا يخترقه المطر، تصنع منه الشوادر والخيام.

(2) - الباب العالي: تسمية أطلقها السلاطين العثمانيون على رؤساء الوزارات عندهم.

وماكان عليه من خبرة لا تُجارى في تقصي الأثر ومعرفة بالصحراء قبائل وأفخاذاً ومساكن.. وقيل في أحاديث أخرى، إنهم بعدأن أوصلهم نجداً، قتلوه.

سأل الشيخ خويه عن وقت نوم الأخرس، كما سماه، فعاد الخوي بالسؤال إلى أصغر الخدم، ثم أجاب.

شاور الشيخ رهطه عن إيقاظ الأخرس؛ قيل نوقظه يا طويل العمر.

انحنى الخوي على النائم. هزه بغلظة مرتين فصحا ونشب واقفاً في زعرٍ باد.. وما كاد يستجمع وعيه حتى أقبل منحنياً على يمين الشيخ فقبل كتفه ثم لثم ظاهر الكف.

شرب الشيخ وصحبه قهوتهم. أمر فَصُبَّ لنزال بفنجان ثم أومأ. فطوَّح الخوي الفنجان..

مرت أيام الضيافة الثلاثة، ولم يفه نزال بحرف.. جرت محاولات كثيرة لتعرف حاجته دون جدوى..

في ضحى اليوم الأول من الأسبوع الثاني، قيل:

ـ يا شيخ، دعه يسرح ببعض غنمك مع السارحين.

. استحسن الشيخ الرأي. بدا على نزال أنه قد فهم، فقد أقبل هاجماً على الشيخ يقبل عقاله وكتفه ثم ظاهري كفيه.

في الفجر اللاحق بدأ نزال يضرب مبتعداً عن

المضـــارب إلى حيــث الكلأ، بأغنام كثيرة وكلب وبعير واحــد يمــتطيه فــي الذهاب إلى المرعى وفي الإياب، ويسرحه مع الأغنام يأكل ويجترُّ ويمرح على هواه..

استمر نزال هكذا يوماً بعد يوم، شهراً في إثر شهر.

لم يدر نزال أن التجاءه إلى مضارب الشيخ كان نجَّاهُ لو أنه بقي في المضارب. لكن بقاءه في المضارب يعني أن يعمل ليس خادماً فحسب، بل أقل مرتبة في خدم الشيخ كلهم، كان عليه أن يأتمر لكل خوي وكل خادم، وإن نفسه تعــاف هذا. ومن يدري فربما استاء أو تشاجر فسيضطر لأن تبدر منه كلمة تكشف أنه يسمع وأنه يتكلم.. فتكون طامــة كــبرى. هكذا كان ظن نزال.. ثم ماذا لو أنه باح بسره، من يدريه بأن الشيخ لا يسلمه.. لكنه لم يفطن إلى أن الشــيخ، كغيــره مــن شــيوخ البادية، كان سيجيره وســيحميه لا حباً به، وإنما كي لا يقال في العرب إنه لم ينتخِ، فما أجار وما حمى.. فتزول هيبة المشيخة ويصبح مضغة تلاك، وربما شعراً يُتغنى به في الأماسي..

ذات يــوم لمح نزال في مرمى النظر غباراً كثيفاً لم يتــبين منشــأه على التوِّ. وحين اقترب الغبار عرف أن سيارة أثارته. حين اقترب الغبار أكثر، ودَّ نزال لو انشقت الأرض فالتهمته والسيارة ومن فيها من الدرك[1] والأغنامَ

(1) ـ الدرك: تنظيم أمني لحفظ النظام في القرى والأرياف.

والجمـــلَ والكــــلبَ جميعاً.. أطلق ساقيه للعدو أقصى ما يســـتطيع، يتــبعه الكــلب والجمـــل. الراكبون الثلاثة لم يترجـــلوا.. أوقفوا سيارتهم وأخذوا يضحكون.. إن الصيد صـــار إن لم يكن في الشبكة، فهو في المرمى الآن.. إلى أيـــن يـــا هذا الطريد؟ إلى أين؟؟ إن المدى مهما بَعُدَ، هو دون قدرتك على الهرب البعيد..

لك الله يا نزال.. لم يعد لك الآن، إلاّ الله.

أجهده الجري. وقف يلهث. زمَّ عينيه. رأى السيارة في مكان وقوفها، تساءل: لِمَ لم يلحقوني!! وحير جواباً..

رَجَّ قلبه أن السيارة تحركت باتجاهه.. أناخ الجمل.. لمع في وهج الشمس ساقا جزْمة.. إن دركياً ترجّل.. قال لـــه بصوت أجشٍّ واثق: تعال.. أقبل نزال خافضاً رأساً، رافعاً عينين كسيرتين. فتح الدركي مغارة فمه، زعم الفم أنـــه يبتسم. ترك نزال لجام الجمل وسار، صعد السيارة صامتاً.. وقفت السيارة قرب الأغنام. جفلت الأغنام برهة. فــزعت ثــم عــادت إلى طعامهـــا مـــن عشب الأرض الأزغب.. أصعد دركي إلى السيارة كبشاً مفتول القرنين كالوعل. وانطلقت السيارة باتجاه الإسفلت.

اقشعَّرَ نزال..

خـــرَّ قلبه بين قدميه حين أمسك أحد الدركيين يمناه فـــلواها وأحكم فيها سوار حديد معلقاً بسوار آخر دسَّ له

فيه يُسراه، وهو صامت سارح في ملكوت متلوّن بالخوف وبالندم وبالذعر وبالتحدي، وبشيءٍ من الراحة لم يعرف مثـلها ويجهـل أي سببٍ لها.. تذكّر لتوّه معصمي سناء وساعدي سناء وكتفي سناء، ثم برقت له رقبة سناء.

ــ يـا ابن الكلب، سنة كاملة نجري وراءك في إثر إثـرك.. تـترك الهندسـة ودعة المدينة وتتعاطى رعي الأغـنام يـا ابـن الكـلب.. إلى أين كنت تظن نفسك هاربـاً؟؟.. إن يد الدرك طويلة، تصل إليك ولو كنت في أبعـد سـماء.. وها نحن صدناك كما يصطاد كلب جرب ولو كان مسعوراً.

دارت السيارة مائة وثمانين درجة ثم أوقِفتِ لأن أحد الدركيين قال:

ــ ألن يسألنا رئيس المخفر، ماذا أحضرتم لي؟

قال الثاني:

ــ حبذا لو أخذنا له الجمل فاقتسمه مع قائد الفصيل.

الثالث قال:

ــ وكيف نحمل جملاً في سيارتنا الجيب هذه؟

كان نزال يتابع الحوار.. نسي سناء فقال:

ــ تذبحونه وتجرونه بحبل، أليس معكم حبل؟

قال ثلاثتهم:

ـ مـن يقدر على ذبح جمل صحراوي؟ إن الكباش الصـحراوية عصـيَّة عـلى الإمساك، فما بالكم بجمل، ونذبحـه أيضاً؟؟ لا.. لا نستطيع.. .. والله إن أفلت برك علينا وعلى السيارة جميعاً فجعلنا عجيناً.

قال الذي أصفد نزالاً:

ـ إن مَن قَدِرَ على سناء، لن يعجزه جمل.

وقع قلب نزال. دخل انعدام الوزن هنيهة رجعت إليه فيها: سنوات دراسته الجامعية.. حديقة الجامعة، صحاب الجامعة، الطريق إلى الجامعة، وعده لسناء بالزواج وعش يملأنـه أطفـالاً وورودا.. فاغرورقت عيناه بدمع غصٍّ، غصٍّ في المآقي، ما ظهر وما انحدر على خدٍّ من خديه البارزين ككثيب متشقق في الصحراء الموحشة.

رفع الدركي كفّاً كخشبة وهوى بها علىخد نزال، ثم أخرج من جيب سترته مفتاحاً أصغر من عينه الحولاء، وأدخله في صفد اليدين، وتابع في إزباد:

ـ انزل يا ابن القحـ[.....] أمسك الجمل واذبحه.

نظـر نزال إلى الدركي نظرة أشبه بالبلهاء.. كانت ذكريات الجامعة ماتزال ماثلة تتراوحه كما يتراوح الوقت بندولُ رتيبٌ في ساعة خشبية..

صـار أمـام الجمل. أمسك اللجام. عيَّنَ في عينيه.

توقف الجمل عن مضغ اجتراره الأثير. ثم أغرق عينيه في عيني ذابحه وفتح شدقه فتحة صغيرة كأنه يبتسم...لوى باتجاه نزال وهو في بَرْكَتِه، عنقاً رخياً سلساً كعنق زرافة ثم حناه أسفلِ فأعلى وشده باستقامة عن نحره، فبدا المنحر مستعداً لقدره المطلوب..هم الرجل ليفعل ما طلب منه. أمال السكين باتجاه رمل الصحراء. لامس بيسراه العنق الطويل ومسده بكف حنون كمن يلامس خد حبيب أو خد طفل وليد. أرخى اللجام وقفل إلى سيارة الدرك. حدق فيه صافِدُهُ بحدَّةٍ وصلف.. قال نزال:

ــ اذبحوني أنا إن شئتم.. لن أقدِر.

وتحدرت من عينيه دمعتان.. سمع أحداً يقول:

ــ اعتبره سناء.

ويردف:

ــ دموع التماسيح.. أتدعي عدم القدرة على ذبح بهيمة.. حقّاً إنك لمكّار كبير.

لم يجب نزال بأن العشاق والمحبين لا يُميتون أحداً ولا يقتلون بل إنهم هم يموتون ويُقتلون هوىً وصبابة.

سمع كفّاً كمرزبة تهوي على الخد المدمع. سمع، ولم يتألم.. خرَّ على الرمل. ثم نهض رمحاً متكسراً.. فتلقى

بصــمت وألم، ركلة حذاء ضخم على فخذه.. بادل الركلة بنظرة تحدٍّ من عينيه الحمراوين كعيون الجن. تاهت منه العينان. غاص في الذكرى..

■■■

السيد سالم

أول مــا رأى مــن حلب.. كان دوّار الصاخور[8]: بناسه، وبغاله، والباعة بعرباتهم التي يجرونها –لا آلة ولا حيوان– مليئة بالبرتقال أو الموز أو الخيار وغير ذلك من فاكهة أو خضروات أو آنية بلاستيكية ملونة، وبازدحامه بالمنادين إلى السفر.

انبهر سالم السلوم، كمن أخذته الصيحة.

اســتغرب أكــثر ما استغرب ذلك العجّ من الرجال والنســاء والأطفــال المــتزاحمين إلى سفر لجهات منها الوجهــة الــتي غادرهــا.. تساءل بينه وبين نفسه كيف يــتزاحمون ويترجّون ليعودوا من حيث أتوا. فهذه حلب التي ماردّت أحداً، بل جبرت خاطر كل قاصد.

كــانت الســيارة تواصل بحملها الصعب: المسافرين

[8] أول حي يلاقي القادم لحلب من جهة الشرق.

وأنعـــامهم وأطفالهم الباكين أو المتباكين مللاً أو ألماً من مرض ما.. حتى بلغت مقصدها: باب الحديد[1]، فاستكان ضـــجيجها وضـــجيج الراكبين. ترجل الجميع إلا سائقها ومعاونـــه الفظ الذي نهر الركاب جميعاً طيلة الرحلة كأنه لـــم يعرف من الكلام في حياته إلا الشتائم؛ أربع ساعات من القرية إلى حلب وماكف له زجر أو صياح أو شتيمة أو صـــفعة لولد.. حمداً لله فقد وصلنا أخيراً؛ فلنفارق هذا المتجبر الأخرق.. قال سالم ذلك عندما أصبح على مبعدة كافية من السيارة.

عـــبَّ ســـالم من هواء حلب. إن لهواء حلب رائحة أخـــرى. وإن للصـــباح فيهـــا نكهـــة ميْـــس السنابل في العصـــاري. وإن لـــلرزق فيها أبواباً كثيرة مُشرعة لكل قاصد..

منذ الغد، بل منذ اليوم إذا يسّر الله أعمل مع العتالين في "باب جنين"[2] حتى إذا انقضى عام – بل أقل– تكون لي عربة أبيع عليها مالذ وما طاب مما يستهوي الحلبيين؛ ولـــن أجـــرها كالباعة الجهلة في الصاخور.. ستكون لي دابـــة تجرها فتريحني، وأنا أنادي على بضاعتي وأقبض الأثمان..

---

[1] ميدان شعبي من ميادين حلب.

[2] سوق شعبية قديمة متنوعة السلع.

حادث سالم السلوم نفسه بهذا..

تقــدم لا جهة من ميدان باب الحديد. استوقفه لحاف ممــدود عــلى الرصيف صفت عليه تباعاً أشياء وأدوات متنافرة ومتآلفة في آن معاً، ووراءه امرأة تربعت بسوادها – لباســاً وسحنة – وقد انهمكت في جدال مع مشترٍ يبدو أنــه مــن أهــل البادية حول مفتاح لقفل ليس معه. اشتد الجــدال اختلافاً حول السعر، ثم عن نية المشتري إعادة المفتاح إذا لم يفتح القفل. تدخل سالم معبراً عن استغرابه أن يشــتري أحد مفتاحاً لقفل ليس معه فزجره المشتري. وإذ تحول إلى امرأة السواد المتربعة– وقد أخذت تُرضع في بله هُرَة هرمة، وليداً أصفر مزرقاً كأنه ليمونة قطفت منذ سنة –وأردف:

– ومــاذا تخســرين إذا أعــاده عندما لايتراكب مع القفل؟ ماذا يفعل به عندئذ؟

نهــرته المــرأة من وراء حجابها، فضرب كفاً بكف وقال:

– خيراً تعمل، شراً تلقى.. والله إنك لظالمة.

أبعــدت المــرأة رضيعها فصاح الرضيع. مالت إلى قبقاب أمامها ورمته به فأخطأته..

مضــى ومعــه اســتغرابه واندهاشــه مــن الباعة

والمشــترين، بل ومن حلب نفسها، وعلى الأخص، أبواق السـيارات التي لاتكفّ عن الصياح كأن جناً مسّها أو هو مقيــم داخلها. وكيف يختلط الناس بالحديد، بغبار أسود، بــالعدو، بالــتأني، بالضوضاء، بقامات الرجال المتأنقين والنســاء الســافرات والمحجبات، ببسطات سلع متباينات عــلى الأرصــفة، برواح وغدوّ عصافير لايعلم من أين تجيء ولا أين تروح، بأضواء كثيرة في واجهات المتاجر مــع أن الوقــت ضحى.. تالله ليكونن لي متجر مثل هذه المتاجر، بل أحسن منها إن شاء الله.. هل هذا كثير عليك ياربي وأنت الوهّاب بغير حساب..

..دَفَشَهُ خرج على جحش كان ينهق برتابة وبأنين.. فكــاد يقع، لولا أن عاجل فاحتمى بمصطبة دكان.. تخيّل لــو أنــه ماكان عاجل، إذن لزحمه الجحش فدخل رأسه بزجاج واجهة المتجر.

لاح فــي الــناحية المقابلة دخان شواء فتحسس جيباً خفياً في قميصه، أدخل كفه، لامس القطع النقدية، ثم شرع فــي عبور الشارع والرائحة الزكية تطوي الشارع كله، تلف الناس والسيارات والإشارة الضوئية.. وسالم منجذب إليها. لكنه قبل أن يدخل في زخم الرائحة تسمّر.. اندفع ثم وقــع كأن جبلاً دهم مؤخرته.. أحسّ باندلاق سائل ساخن قليلاً بارد قليلاً على ظهره.. ثم تمشى الساخن البارد، إلى

باطن ركبتيه في أناة التذّ لها. شعر بنعاس حالم فنام دون أن يدري بأنه قد نام.

..حيــن صحا ظن نفسه في الجنّة. فهذه الحسناء – بــزيها الأبيــض كالطحين – حورية وُعِدَ بها منذ خلق الكون.

فُــتح بــاب.. دخـــل اثنان: رجل وامرأة. فازدحمت الغرفة بعطر عبق ما شمّ مثله قط، ولاحدّثه أحد عن مثله قط.

فتحت المرأة فستق فمٍ كأنه قلب من اللوز واللؤلؤ:

– نحمد الله على أنك عدت لنا.

..رفـــع رأســـه. بدا له الرأس ثقيلاً بوزن مئذنة. مدّ بصراً كحد مثقب.. تنهّد لحظة وقال:

– وأين كنت؟

قال الرجل الوسيم:

– لاعليك.. لا عليك إننا نحمده فعلاً.

لاقت عيناه عينيْ الحورية، فتبسّمت العيون:

– كنتَ في عالم، وأنتَ الآن في عالم ثان.

تــلفت حواليه.. لم ير أنهار عسل وخمر، ولا أرائك يُــتكأ عــليها، ولا ولداناً يطوفون.. كاد أن يثقب السرير

بسبابته ليتأكد من أنه لايحلم. أيقن أنه في مكان ما من حلب، لكنه لم يعرف أين، كما لم يعرف أن حورية الطحين ممرضة في المستشفى، ولا من تكون المرأة الوردة أو الرجل الوسيم، ولا مأتى العطر الذي ملأ المكان كله، ولا أن المكان محض غرفة.

أذن لمخيلته أن تطير به بعيداً.. حلم بالحورية تبذر معه القمح وتتولى حلب الأغنام والماعز.. لا، لا.. سيبذر ويحلب عنها، فليس عليها إلا التفرغ له، تتمشط وتتزين النهار كله، حتى إذا كان الربع الثاني من الليل، تضاحكا معاً، ومارسا أموراً حميمة ودافئة. وحلم بالسرير يطير بهما معاً فوق غيوم ماخطرت على قلب بشر وما رأتها عين. وبأن هذا الرجل الوسيم كأنه المحافظ نفسه، يقول له نحمده على سلامتكم، كلما حطّ السرير من الرحلة خلف حدود المعلوم. وحلم بالمرأة الوردة تهش له وتبتسم كلما اكتحلت عيناه بها.

غير أن السيدة الفوّاحة، ردته من أحلامه السارحة عندما مدّت إليه بكف من شقائق النعمان والفل البهيج، ورقة نقد مطوية بأناقة واعتناء، وورقة عليها كتابة. أخذ سالم الورقتين ببراءة غراء رضية، تملاّهما طويلاً، قلّبهما. هم بإرجاعهما لكنه أمسك إذ سألته ما إذا كان قد قرأ المكتوب على الورقة قال:

- أيهما؟

قال الرجل:

- أيهما؟؟.. هذه بالطبع، فالثانية ورقة عملة ياسالم.

توشح وجه سالم بحمرة خجل رقيقة. إن سالم لايقرأ ولا يكـتب، فهو أمي أباً عن جد. ولم يكن في حياته كلها قـد رأى ورقـة نقدية كهذه.. داخله فهم بأن لأهل حلب نقوداً غير التي يتداولون في القرية.

- النقود وفهمناها، والورقة كتابة، هل علي أخذُهما؟

- بل تأخذ النقود هدية لك حلالاً زلالاً.

سألت المرأة بغنج باد:

- أنـت لاتعرف الكتابة ياسيد سالم، ولا توقع أليس كذلك؟

أحس باغتباط جم. كانت هذه هي المرأة الأولى التي يسـمع مـن يقـول له يا [سيد].. كم سعد.. وكم أعتز.. أحست المرأة كأنه طاووس. وقبل أن يجيب، استل الرجل المهيـب الوسيم من جيب سترته علبة معدنية رقيقة فرفع غطاءهـا وأمسك إبهام سالم بجفاء، ومهر الورقة به. لم يُسـمع لسـالم صـوت. لم يصدر عنه اعتراض. كما لم يصـدر عـنه استفسـار.. فقد بشت أساريره. بدا ممتناً ومبـتهجاً أشد الابتهاج، فهو يعلم أن قبض النقود يستلزم

بالتأكيد بصمة أو توقيعاً.

وبيــنما الورقة وبصمة سالم السلوم تأخذان طريقهما للاســتقرار فـــي محفظة السيدة.. كان غمٌّ كثير قد غمر الممرضة الشابة، فهمت أن تقول شيئاً، لكن حلقها غص، فأغضت حزينة وكسيرة.

خرجت كف السيدة من محفظتها بورقة نقد تُشبه أو لاتشبه ما أعطته لسالم. إن سالم لايدري، لكنه رأى وسُرَّ سروراً عظيماً لما اعتبره حود المرأة وجود الرجل.

الممرضة ظلّت تريد أن تقول لسالم ماودّت قوله قبل أن يغصّ حلقها، إلا أنها لم تقله.. بان على المرأة الفواحة ظفر عظيم وهمّت تغادر. أراد سالم أن ينزل من سريره لوداعها. أدرك أنه لايستطيع. قال:

-تبّاً لك ياحلب.

ثــم سحب ملاءة السرير فغطّى جميع وجهه.. وأخذ يبكي بصمت، ويذبول.

■■■

ذات ليلة من شباط

سمكة بحيرة الأحلام الممتدة من سراب الهاجرة إلى حقول القمح والذهب والبترول، ظلت تحاور البنت البدوية سنين وسنين -ربما مائتين، وربما أكثر- حتى غدت كل منهما تخاطب نفسها عندما تخاطب الأخرى.. ولم تكبر أيٌّ منهما عن قوس الطفولة. لكن الجميع يعرفون؛ ومنذ قديم الأزمنة؛ أن كلاً منهما مولودةٌ رمزَ طفولة أبديٍّ النجوى، لايُغيّبه عمرٌ ولا تعصره هموم.. تتناجيان دون ماضٍ وقد ابتنت كل واحدة لنفسها الأمل نفسه، الحلم نفسه، وأيضاً الرغبة نفسها.. رغبةً بعالم آتٍ من داخل المعاناة، مزهر بربيع لاينقضي وبشمس لاتغيب.. وبأن الغريب سيتجرّع الأشواك كلها ويلوذ بالخيبة المرة في بلاده البعيدة.

وفي ليلة ماكان فيها ضوء، ماكان فيها نسمة، ماكان

فيــه صوت.. اشرأبت السمكة. نظرت بعينيها الحمراوين نحــو البــنت البدوية.. أومأت البنت البدوية أن التنانين مُغضَــبة، وقــد تربّصت بالعاشقين وبالقوافي والمقامات الغريقة عراقة نيران المجوس والشرائع الأولى.. فتمطّت الســمكة، وتمــطّى معها نجم الصبح فأضاء المكان برق وبيلسان وصفصاف فراتي.. ثم غادرت مصطخب الماء في البحيرة، نافضة عن جسمه الأثير: العوالق والأصداف الفارغــة، فاعتــنقت بهــا البــنت البدوية اعتناق السيف بالرقــبة، وأجهشتا معاً ببكاء صامت حارق حنون. كانتا خائفتين من شيء ما. شيء كالمعاصي أو أشدّ وطأة.

قالت البنت البدوية: خذيني إليهم، إنّهم أهلي.

قــالت السمكة: تعاليْ إنهم أمهاتي وآبائي، فادْخليني نذهب إليهم..

ســرّحت البنت البدوية شعراً أصفر كاللهب. أغدقت عطــور ســالومي علي النحر فسال إلى السّرة ثم توضّع مابين الخاصرتين. تعطّر المكان: الشاطئ والماء والنخل والشاطئ الآخر؛ واحتشدت جميعها بالابتسام.

وفيمــا كانت البنت تهم بدخول السمكة الغضّة.. تلت صــلوات وابــتهالات اســتعاد بها الليل شرف الصدّقين والشــهداء، وانتصبت قناديل العنفوان والكبرياء مدججة بالشــهامة. هلل الأقحوان الندي. علت الزغاريد.. فالليلة،

تدخل بطن السمكة، كما دخل يونس بطن الحوت الكبير.

أقعت السمكة، ثم انتضت سيف البطولة وسرت من الرصافة إلى فيء المعتصم الشهم. شهقت عند الباب الدمويّ.. كان: النوارس، وعمال التنظيفات الطيبون، والجنود الشجعان، والرّضع، والعاهرون، وأبناء السبيل، والعسس الخبثاء، وفوّهات المدافع المتيقظة، وضفائر بنات رياض الأطفال، وصبيان الأزقة، والأقحوان، وأسطحة المنازل، والساحات، والميادين، والأرصفة، والجسور، وأشجار الدفل والحور، والكتّاب الصادقون والمأجورون، ومحطات الكهرباء، ومواقع استخراج النفط، ومكاتب البريد، والمرابون، وبنات الهوى، والباعة المستقرّون والجوّالون، وطاولات المقاهي، والسماورات، ودنان الخمر، والمقامرون، والخمّارون، ورجال السلطات الأربع.. جميعهم كانوا واقفين بالمرصاد، غير آبهين ولا وجلين. والبنت البدوية لم تكن وجلة؛ فقد مدّت في اتئاد نمرةٍ جريحة، عينيها المشوقتين من داخل عينيْ السمكة. حدجت المنظرِ كله.. رأت في أفق المشهد غرباناً مدلهمة كالغيوم، سوداً كالغضب الربانيّ. تساءلت:

– أي قرصان تربّص بحريتك، يامن تجوع كلّ عامٍ حين يعشب الثرى؟.. وأية أصوات هذه التي تنفجر في نسمات الصبح البهيّة والنديّة فستقر في كل قلبٍ خليّ؟؟..

أغضبت السمكة وجهاً حيياً وغاصت في الهم حتى الذوبان..

كان البحر يسكب زبده على أقدام بعدد الرمل والحصى نبتت على التوّ لصخرة كبيرة عاصرت الزمن كله.

والنهر الغادر اقتاد ضفيرة البنت البدوية، الصفراء كاللهب الأقدس، وألقاها داخل البحر، تعبث بها الوحوش.

طفت الضفيرة على الموج لحظة.. تسللت تحت الموج لحظة.. ثم تضاحكت بين موجتين زرقاوين كعينيْ حلبيٍّ أصيل، واستسلمت لهما.. غزالةً مجهدة وسكنتْ. تاه الماء بهدوءٍ ناسك بوذيٍّ وهو يحملها كما تحمل الفريسة إلى بيته الواسع داخل البحر.

جميع الصقور الأليفة، والحباري، والأشعار النبطيّة، والجنائن المعلّقة في قصور الصحراء، والحشائش الضارة والنافعة.. شهدت جميعها المشهد كله ولم تعترض، ما ندّت عنها نأمة، بل أثرت المشهد باشتراكها في الرقص الموتيّ. وقد زُعِمَ بأنها كانت متواطئة مع النهر والتنانين الكفرة.. كان لسكوتها صوت المواخير والمراحيض العامة!! لكن الصحارى ارتجَّ عليها فغاصت في الخجل. أما النساك فاعتصموا في صومعات التقوى يأكلون من خبز السلطان ويضربون بسيوفهم المنكسرة كصبايا

مغتصـــبات، وفيما بعد اعتصموا بالتكايا يمارسون رقص السـماح ويقيمــون حفــلات الزار، ويبتهلون.. يبتهلون ويستغفرون ويبتهلون.

فجأة -تلفّت البحر الضخم كزرافة، ثم قبع متوحّداً مع همّــه. استظلّ بالدهور الغابرة أيام معاوية، وبكى كطفل غريـــر مجــذوم؛ فحضر السلاطين وجوهاً آهلة بالفرح وبالأزمان، حالمين بأثداء النساء قطوفاً دانية وتهاليل ألق، وكـــراديس مـــن رمان الطائف، من تين الشام، وكمثري بيروت.

قامت البنت من بطن السمكة.. تملّت في شبق الغرب القادم. صاحت بدلافين خليج العتمة.. ضاع الصوت ولم يســمع أحد شكواها، إلاّ الحوت.. بصق يونس وواساها، فخـــرّت وحيـــدة مســـربلة بالدم الدافئ في المياه الدافئة، فاصطخبت الأغاني كالأناشيد، وتسرّب النهر إلى سردابه تحت الصخرة ذات الأقدام التي عَدَدَ الرمل والحصى.

اشرأبت السمكة. واشرأبت الضفيرة.

لـــم يلـــبث الســـرداب أن مار، ثم تهاوى، وهوى. فغاصت فيه البنت البدوية.

قالت الصخرة:

– نسي النهر أن يملأ السرداب.

فـوجئ الـبحر بالانهيار. واصل بكاءه الغرير، ثم انـتحب لأن جديـلة أخرى كانت قد أخذت طريقها إلى الاستقرار في قاعه الصقيل.

■■■

السنبلة

في اليوم القائظ. في أول اليوم القائظ. رفعت السنبلة رأسـها الصغير، وبعد أن تلفتت ذات اليمين تلفتت ذات الشـمال ثم شرعت في الكشف عن ركبتها أمام العصفور الصغير.

ولأن العصـفور الصـغير لم يعرها اهتماماً باشرت خـلع ملابسـها الذهـبية قطعة قطعة غير آبهة بالسنابل الذكور المجاورة، ولامتعظة بما حلّ في العام السابق من السـحق المـتكرر الـذي لايرحم لكل سنبلة تعرّت؛ وإذ فـرغت أخذت تغمز لـه بعينها الواحدة كأنها تدعوه إلى فعل؛ فلم يستجب.

زعمـت في نفسها أنه لم يكن راغباً في الفعل الذي تدعوه إليه ذلك الوقت المبكر من النهار القائظ، حيث كان النوم الصعب آخذه كلّه، وحيث كل شيء كان مايزال يغط

بالنوم العميق. بعضٌ من الكل شيءٍ كان يحلم بالارتياح، وبعضٌ يحلم باستباق الأيام إلى الشهور وبمياه الأنهار في سـعيها الحـثيث باتجاه البحر، وبعضٌ باستباق الشهور وبمياه الجداول في تشاغلها بالجريان فيما هي تسعى سعياً سـريّاً لايعـرف الكلل لكي تتسرب إلى جوف الأرض، وبعـضٌ آخر كان يتقلب في رقدته كاشفاً سيقانه ومافوق سرّته لشدة الحر، في اطمئنان ودعة.. أما البعض الكثير، فكان مستسلماً يحلم بانقضاء السنين ولايصحو إلا للصلاة. ذلـك البعض هو الذي استوعب أن الغاية من الوجود كله هي العبادة تسبيحاً لربّ العباد آناء الليل وأطراف النهار.

وهكـذا فـإن السنبلة – وكانت ترى ذلك – أكملت عـريها الصعب السهل الفاضح وغنّت للعصفور الصغير مايُعرف بأنه الأغنية الأولى، وحررت له التفاحة الوحيدة من سطوة الشجرة واستلقت تحتها..

ما كاد العصفور يهمُّ بالاقتراب – كان يريد أن يرى ما الذي يحصل ولماذا – حتى عالجته السنبلة واغتصبت قبلتها من منقاره المتورّد، فغضب غضباً عظيماً وأقسم أن يشكو أمرها للشمس، فإذا لم تنصفه شكاها للقمر، وإذا لم ينصفه هو الآخر اكتفى بالطلب إليه ألاّ يفسح مكانه لأي شمس راغبة في القدوم. وماهذا مطلب عزيز التلبية.

مـــلك الشجاعةَ قلبُ السنبلْة، وفعل التحدي فعله فيها، فاستمسكت بقدميه وقالت له: لن تحلّق إلا وأنا معك.

غـــرس أظافـــره بقلبها تماماً وطار بجسمه وبروحه وبها، بعيداً بعيداً.. صارا في الجو.

نظـــر العصـــفور الصغير إلى جموع السنابل على الأرض فوجدهـــا جميعـــاً مســـتلقية عـــلى البيادر وعلى جوانـــبها، تتزاني عصافير كثيرة كان قد سمع بأنه ستقبل مـــن مكان بعيد فترتاد الوطن وتفعل فيه ما تفعل. أحسّ بمـــرارة وبخزي شديد وبالعار يجلّله، فشدّ الأظافر على السنبلة بكل مافيه من قوة ومن غيظ ومن انتخاء..

أما السنبلة فكانت تنظر إلى الأعلى تستعطي الصبر وتَحَمُّلَ مشقة ماهي عليه، لكنها لم تكن تحسّ بالهوان ولا حتى بالامتعاض لهذه الطريقة الفظّة التي اتبعها العصفور الصـــغير مع ولهى أرادت أن تمتّعه وأن تتمتع لحظةً قبل وقـــت الحصـــاد القادم لا محالة قدراً سنوياً ماحقاً، لكنه معتاد.

توقـــف فـــي الجو هنيهة.. استشعر في ذاته ذنباً لم يقـــترفه، فخجـــل خجلاً مابعده خجل، ودخل غيمة رقيقة فاغتسل تخلّص من آثام ماضية ومن إثم لم يرتكبه: وحين اغتســـلت الســـنبلة أفلتها وأمرها أن تستر عريها فامتثلت

صـــاغرة.. ثم توضأ كل منهما. قررا الذهاب إلى أقرب كنيسة لتعترف هي بذنبها، ويعترف هو بذنوب الآخرين.. لكنهما وقد وجدا نفسيهما وجهاً لوجه عجوزين بعد طول السفر في الفضاء الرحب، تراجع كل منهما عما انتوى.

عادت إلى تعرية ساقيها وكانا متشققين، طار صواب العصفور الصغير العجوز فأسلس لها منقاره الأحمر تقبّله تقبّله حتى ماتت.

لــم يكــن العصفور الصغير العجوز قد خبر الموت قــبلاً، فاخــتار فيمــا حصــل، واستغرب أنها كفّت عن التقــبيل.. كان قد وجد فيه لذّة عظمى عندما امتزج لعابه المالح بلعابها النشويّ حلو الطعم. فقد أعطاه لعابها شعوراً بشبع لم يشبع مثله يوماً قطّ.

هزها بمنقاره هزّة.. هزّتين، لم تتحرك!. هزّها بأحد جـناحيه، لــم تــتحرك!.. صفقها من الجانبين بجناحيه الاثــنين، لم تتحرك!.. أحس بخيبة كبيرة، فبكا.. وبكت معه غيمة رقيقة بكاءً لاصوت له. حملها بمنقاره الأحمر واستقبل الشمس البعيدة ليشكو لها ماحصل. لم يعد راغباً بشكواها. ولا بالشكوى منها.

غــادر الأمكنة والغيوم العالية والأزمنة، حتى وقف عــلى بــاب الشمس فقرعه مرات. دفعه مرات أكثر فما

فُــتح. ظل واقفاً بالباب أعواماً، كل عام مقداره ألف عام ممــا يعـــدُّ أو يـــزيد.. ومايزال، واقفاً بالباب كسيراً يهز السنبلة بجسمه كله هزاً متواصلاً لاينقطع.

■■■

الفهرس:

■■■

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

مـــــوال وفيقـــــة: قصــــص/ نــــبيه شــــعار-
[دمشـــق]: اتحاد الكتاب العرب، 2000 –
93ص ؛20سم.

1- 813.01 ش ع ا م 2-813.009561 ش ع ا م

3- العنوان 4- شعار

ع- 2000/8/1355- مكتبة الأسد

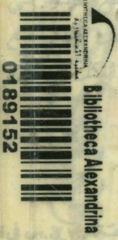
□□



اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق

هذا الكتاب

مجموعة قصصية تتناول موضوعات إنسانية، اجتماعية، وفردية، تجسد المجموعة وعي الكاتب ومواقفه من قضايا المجتمع والحياة، وهو وعي حر متقدم، كما أنه إسهام في تكوين وعي ينهض بمجتمعنا نحو حياة أفضل، كتبت المجموعة بلغة دقيقة في السرد الروائي وتتألق مع ماهو وجداني وإنساني، بعيدة عن التكلف [illegible] اللفظة والعبارة والصورة، وقدرة على التـ[illegible] حرص على ألفاظ بيئية تفيد في الدلالة على [illegible] والعادات وعلاقات الناس.



مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق

ثمن النسـ[illegible]
١٢٥ ل.س في أقطار الوطن العربي